عنترة بن شدّاد

٨

دار المعارف بمصر

عنترة بن شدّاد

٨

تأليف

حسن جوهر
محمد أحمد برانق
أمين أحمد العطار

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

١

ما لبث بنو عبس أن عجلوا الرحيل ، فأسرعوا يضربون فى مجاهل اليمن حتى أشرفوا على البحر فى أرض ذات أنهار جارية ، ومراع واسعة ، وخيرات سابغة ؛ فرغب قيس أن ينزل فيها ، ويتخذها له ولقومه وطناً ومقاماً ، وقال لعنترة : قد عولت على ألا أنزل فى مكان دون أن أعرف أصحابه ، وأوثق روابط الإخاء والمودة بينى وبينهم لنكون فى مأمن من قتال أو عداء .

فقال عنترة : من الخطأ العظيم نزوحك من أوطاننا ، فما كان النعمان بمستطيع أن ينال منا فى ديارنا ، وإن من غلبناهم من الأعداء فى رحلتنا هذه أشد قوة من النعمان وجنده .

فقال قيس : هذا قضاء الله ، والكلام فيما فات لا يجدى .

ثم التفت إلى شيبوب قائلا : ما هذه الأرض ؟ ولمن هى ؟

فقال شيبوب : قد قربنا من البحر وبين أيدينا مياه يقال لها مياه عراعر ، وملك هذه الأرض مسعود بن مصاد الكلبى ، وهو ملك عظيم القوة ، واسع السلطان ، معروف هو وأبوه بالجود والإحسان .

فقال قيس : خير لنا أن نستأذنه فى الإقامة بأرضه ، حتى نكون فى حوزته وذمامه .

وقال الربيع : ولا أرى فى هذا الاستئذان منقصة لنا ، فكم من ملوك عظام استنصروا ملوكاً أضعف منهم ناصراً وأقل عدداً .

ذهب قيس والربيع وعدد من رجال حاشيته إلى الملك مسعود ، وعرفوه بأنفسهم ؛ وبسبب خروجهم من ديارهم ، واستأذنوه أن يقيموا فى أرضه وحمايته وأمنه ؛ فتلقاهم بعظيم الحسنى ، وأذن لهم أن يحطوا رحالهم حيث يشاءون من أرضه ، وكفل لهم أن يرد عنهم أى غزو أو أى أذى بماله وجنده ، وأمر أن يلبثوا فى ضيافته ثلاثة أيام ، ثم شيعهم مزودين بالهدايا وعظيم الاحترام .

كل أولئك قد كان ، وعنترة غير راض عنه ولم يشترك فيه ، وزاده غمًّا على غم أن أهدى قيس الملك مسعودا بعضاً من نوق عنترة العصفورية ، إذ رأى فيها هدية من ماله لعدوه وذلك ما تأباه نفسه ، واختار بنو عبس الإقامة فى أرض الملك مسعود فى منأى عن محلتهم وديارهم ، ليكونوا فى معزل يقيهم شر أطماع أحد فى مالهم أو شر حاقد إذا حقد .

كان الملك مسعود قد اطمأن إلى مقام العبسيين فى دياره ، وبالغ فى إكرامهم ، فجعل أرضه ومراعيه حلاً لهم ، يختارون لإقامتهم ما يشاءون منها ، ومنحهم على ذلك عهده ، وأعلن لهم ذمامه وحمايته .

وذات يوم أرسل إلى قيس رسله يدعونه هو وأعيان قومه إلى وليمة أرادها لهم على غدير من غدران أرضه ، وذلك توثيقاً للرابطة وتقوية

للعلاقة ، ومضاعفة فى الإكرام وحسن الجوار ؛ فوجد الرسول قيساً قد ذهب هو وبعض كبار رجاله إلى الصيد والقنص ، ليستعينوا بذلك على إقامة وليمة رأوها واجبة للملك ومن يحب من عشيرته وقومه تقديراً لما قوبلوا به من كرم وحفاوة ، ولما رجع إلى الملك رسله سألهم عن بنى عبس فقالوا : نعم القوم ! ! ونعم ما هم فيه من الترف والرخاء ! !

فلم يكد يطمئن إلى هذا القول ، واستنكر أن يرى الغنى والترف لدى جماعة أخرجوا من ديارهم عنوة ، فساحوا فى الأرض يبتغون المقام والعيش ، وأصر على أن يذهب إليهم متنكراً ليعلم حالتهم التى يعيشون بها ، ولما كان بين أحياء بنى عبس ورأى القباب الكسروية ، والنوق العصفورية ، وغيرها من مظاهر النعيم والترف — فرح لتلك الحال فرحاً عظيماً ؛ وبينما هو يدور بين الخيام رأى خيمة ممتازة بعلوها وفخامتها ، وانبساط نواحيها ، تطل من بابها فتاة كعوب كأنها اللؤلؤة المكنونة ، ينم شكلها وحليها وملابسها عن سمو مركزها فى جماعتها ، وأنها بنت سيد أو ملك ، فخف إليها ولقلبه وجيب من فرط ما أحبها وتعلق بها ، فوقف أمامها وطلب إليها شربة ماء يطفى بها حرارة العطش فقالت :

طاعة عاجلة ، وستجدها لديك حاضرة .

فزادت نار حبه اشتعالا وتوهجاً ، وما هى إلا لحظة حتى عقد على الفتاة عينيه ، وهى قادمة بشربة الماء إليه ، فجعل يتمزز الماء وعيونه

لا تنفك شاخصة إليها ، وهى ترسل نظرات تشع هوى ومحبة ، فلما أبطأ الإناء على فمه ، ونمت حالته عن حاجة فى نفسه أخفاها خلف الماء وشربه ، قالت الفتاة : لقد عققت الرجولة ، ولطمت وجه المروءة ، بنظراتك الخبيثة ، وعرضت نفسك لأمر لا تستطيعه ، فعد إلى قومك وأهلك ولا تحاول لما فى نفسك طلباً وسعياً ، ثم مدت يدها وأخذت الإناء بشدة ، وانصرفت إلى بيتها مدبرة آسفة ، وذهب هو إلى أهله وقومه على حال من الهوى كئيبة أسيفة .

وزارته أمه ليلة عودته من أحياء بنى عبس فوجدته على حال من الهم والكآبة لا تطاق ، ولما بيّن لها ما أضنى فؤاده ، وأحرق قلبه ، قالت :

كيف تشغل نفسك بفتاة من قوم يزوج ساداتهم العبيد بالحرائر ؛ وأنت ملك لك شخصيتك ونفوذك ، ومن اليسير عليك أن تتزوج أحسن منها شكلا ، وأعلى منها كعباً ، وأرسخ منها فى الحسب والنسب قدماً .

فقال لأمه : لا تحاولى مستحيلا ، فإما تزوجت من هذه الفتاة نفسها ، وإما كنت من الهالكين .

فقالت أمه : ما دمت مصراً على الزواج منها فائذن لى أن أذهب إليها حتى أدبر لك سبيل الحصول عليها .

فقال مسعود : لك ذلك ، وإنها فى الجهة اليمنى وأنت داخلة أحياءهم ، وخيمتها من الحرير على ربوة عالية ، وهى تفوق ما حولها من الخيام

الملك مسعود متنكر فى ثياب بدوى وعبلة تناوله قعباً به ماء

علوًّا وامتداداً كأنها قبة ملك عظيم .

وكانت أم الملك فى غدوة النّهار عند الفتاة فى خيمتها ، فما اكتحلت عيونها ببارع جمالها حتى تلمست المعاذير لهيام ابنها بها ، وبعد أن حيَّت وجلست ، ورأت من الفتاة لقاء حميدا ، أخذت تتحدث إليها فى شجون الحديث وفنونه ، وكانت لبقة حلوة الكلام بصيرة بأفانينه ، كما كانت الفتاة تسحر الجليس بعذوبة اللسان ، ورطب البيان ، وسحرها الناظر بفاتن الجمال والقوام .

سألت أم الملك مسعود الفتاة : ما اسمك أيتها الفتاة الرشيقة ؟

فقالت : أنا عبلة بنت مالك بن قراد ، وزوجى أمير الشعر وفارس الحلبة عنترة بن شداد .

فقالت الأم : إذن أنت ذات زوج ؟

فقالت عبلة : نعم .

فألقت عليها نظرة طويلة ساهمة ، ففهمت عبلة منها أنها كانت تود أن تكون عبلة فارغة ليست ذات زوج .

فقالت عبلة : لعل لك ولداً تخطبين له ! !

فقالت : حيّاً الله بصيرتك ، وصدّق ظنك . إن لى ولداً يا بنيتى العزيزة ، آتاه الله ملك هذه الأرض التى نزلتم فيها ، وهو الذى تقيمون فى كنفه وأمنه ، وتأكلون من خير أرضه ، واسمه الملك مسعود بن مصاد ،

وقد ناولته بالأمس كأس الماء ، ليطفئ حرارة عطشه ، فأوقد حبك فى أحشائه ناراً تلظى ، لا يطفئها إلا قربك ، واتصالك به ، فإن لم تكونى ذات بعل فهو خير زوج لك ، وإلا فارحميه بالاتصال به ، وسيسبغ عليك نعمة غناه وملكه .

فاربد وجه عبلة غضباً وحدقت فى أم الملك قائلة :

أهذا الذى تصفين ابنك أيتها العجوز ؟ ! خسئت وخسئ نسلك ، ولولا أن سبق إكرامنا لك لحبسناك أو قتلناك ، فعجلى بالرحيل إلى ابنك وأنذريه الخراب والدمار ومحو الآثار على يد عنترة بن شداد ، إن لم يرعو عن هذا اللغو الذى عكرت به صفونا ، ولا يغرنه ما عنده من كثرة الجند ، وعزة الجانب ، فإن زوجى عنترة كفيل بهدم كل أولئك ؛ ارحلى من فورك غير مشيعة بإكرام ولا تحية .

ولما رجعت أم مسعود إلى ابنها وألقت بين يديه كل شىء قيل لها . . . ابتأس وتحير : أيمسك نفسه على ذل الغرام والهوى محافظة على قوم أعطاهم عهده ومنحهم رعايته وحمايته ؟ أم يأخذ عبلة منهم قسراً وإن دفنهم من أجلها فى التراب ، ودفن معهم عهده لهم ؟ !

ومكث وقتاً غير قصير تتجاذبه هاتان النزعتان ، وهو لا يهتدى إلى سبيل ، وبعد أن أضناه التردد خطر بباله أن يعرض أمره على شيخ كبير يدعى جندلة وهو معروف بخبرته وسداد رأيه ، وكان الملك

لذلك يشاوره فى أمور كثيرة تهمه ، كما كان يحترمه ويجله ، لأنه هو الذى رباه وعلمه ، ولما حضر بين يديه ، وألقى فى سمعه كل شيء من أمره ، سكت الشيخ مليًّا ثم قال : الغدر ظلمات بين يدى صاحبه ، وهو غير لائق بملوك طاب عنصرهم ؛ وعظم بين الناس شأنهم ، وأرى أن تعرض عن طلب عبلة ما دامت ذات بعل ، وإذا كان لا بد لك منها ، فلندبر لزوجها قتلة خفية ، وبعد قتله تطلب يد عبلة على ملأ من الناس ، دون أن يلحقك من ذلك بأس . ولدىّ تدبير آخر يمكنك من الاجتماع بها فى حياة زوجها دون أن تتحمل تبعته ،أو يصيبك إثمه ؛ فإن زوجتى البلقاء بنت الزرقاء ماهرة فى السحر وفنونه ، ومن اليسير عليها أن تسحر عبلة ، وتجعلها تأتيك على وجهها ؛ فابتهج الملك وقال : وقد سمعت عن البلقاء فى السحر كل عجيب معجز ، فلتحضر لدينا الآن .

ولما حضرت قص الملك عليها قصته فقالت : موعدنا هذه الليلة القادمة ، على أن تخرج معى وحدك لتكون على مقربة من خيامها ، وهناك تجدها قد خرجت من خيامها فى سرعة وتلهف إلى لقائك .

فقال الملك : ولك عندى بعد ذلك الجزاء الأوفى .

وبينما هم ينتظرون المساء جاء الملك مسعوداً رسل قيس بن زهير يدعونه ومن يشاء من كبرائه وأعيانه إلى وليمة أعدت لهم لتكون مظهراً من مظاهر شكر بنى عبس للملك مسعود ، وتقديراً جميلا لحسن استقباله

لهم ، وكريم إيوائه إياهم ، فلبى الدعوة ، وقال للبلقاء :

سأذهب إلى الوليمة ، وسأمكث فى بنى عبس ثلاثة أيام ، وعليك أن تنفذى تدبيرك عقب مغادرتى أحياءهم فى الليلة الثالثة .

فقالت البلقاء : على أن تلتقى بى فى كثيب الصفاء لأنه أقرب مكان إلى الرابية التى عليها خيمة عبلة ، وليكن حضورك بعد أن يبسط القمر ضوءه على الصحراء .

فقال الملك مسعود : لك ذلك ، وذهب مع رسل قيس إلى الوليمة . وهناك استقبل هو ومن معه استقبالا كريماً ، فرأى العبيد والجوارى فى حلل فاخرة ، وحلى غالية ، وشاهد حلقات الرقص والغناء ، واستمتع بحفاوة بالغة ، وقضى وقت زيارته فى فرح عظيم .

وحضر الوليمة رجالات بنى عبس وفيهم عنترة ، وعروة بن الورد ، ومقرى الوحوش ، وكانوا جميعاً تذهب بهم أهواء الفرح كل مذهب ، ما عدا عنترة فقد كان غارقاً فى همٍّ كبير وغيظ عظيم ، إذ كانت عبلة قد أخبرته بما كان من الملك مسعود وأمه ؛ وزاده همًّا على همٍّ أن جلس الملك وجعل يصوب نظره نحو خباء عبلة ، عسى أن يحظى منها بنظرة ، يجد فيها راحة لقلبه ، فأسر عنترة إلى عروة ومقرى الوحوش بما وصل إليه من عبلة وقال : أرأيتم كيف علق بصره بخباء عبلة ؟ !

فقال مقرى الوحوش : لا يحزنك يا عنترة ما ترى ، وما علينا إلا أن

نكظم غيظنا ، حتى تنتهى الوليمة بسلام ، فإذا ما بارح ديارنا خرجنا فى أثره وقتلته بسيفى هذا شر قتلة وبذلك يضيع دمه ، ولا يعرف قاتله، ويكون قد نال جزاء خبثه . وعقد الثلاثة عزمهم على هذا .

٢

وفى الليلة التى عزم الملك مسعود على الرحيل فيها سبقه عنترة وعروة ومقرى الوحوش إلى مكمن فى طريقه ، يتلقونه فيه ، ويقضون عليه . وبينما هم سائرون لحوا ضوء نار فى كثيب الصفا ، فهم عنترة أن يذهب إليها ليتبينها ، فيقضى بسيفه على أصحابها إن كانوا عادين ، ويبسط لهم يد العون إن كانوا مستصرخين . فأصر مقرى الوحوش ، أن يذهب هو نفسه ليعود حاملا نبأها ، ولما دنا منها رأى عجوزاً سمراء اللون زرقاء العين ، قوس الدهر ظهرها ، وأشاب شعرها ؛ قامت على تلك النار تؤججها بما تلقيه فيها من عظام وحوافر ، وحولها مقامع من حديد ، وتماثيل من رصاص ، وهى تهمهم وتتلو عبارات كلها رمز وغموض ، لا يعرف السامع لها معنى ، ولا يتبين لها غاية ، فلما أحس رعباً فى قلبه، وضعفاً فى عزمه، انفلت مسرعاً إلى عنترة وعروة وقال : يبدو لى أنها نار قامت عليها جنية ، ولا يستطيع إنسان أن يدنو منها .

فقال عنترة : ما هذا الذى تقول ؟ ! علىّ أنا بها، فسأجعلها بسيفى هذا هى ومن معها من الجن رماداً كرماد نارها ؛ ونهض من فوره ، فتبعوه إلى هذه النار الموقدة ، وهناك سمعوا العجوز تقول :

وهى تقلب النار وتلوح بيديها نحو خباء عبلة :

ياشر عمود بن شنطهور ، يا من أمرك نافذ فى العفاريت ، ومن لإبليس من جنود ، حول قلب عبلة إلى الملك مسعود ، قثاعم فى صدرها ، وبراقش فى عينها ، ومطر طريق مفتونشاز لعقلها ؛ هيجان يعم الدار ، وغليان فى الدم غليان النار ، وصداع فى الرأس ليس له قرار ؛ وخبل يسيل به الوعى المدرار ، وثورة عصبية تموج موج البحار ، ونشوز صارخ من الديار ، يحل بجسم عبلة فى الليل والنهار ؛ الوحىَ الوحىَ ، العجلَ العجلَ ، الساعة الساعة .

فهمّ عنترة بها أن يقتلها، فالتفتت إليه قائلة :

كيف تظلم البريئة ، وتوقع نفسك فى إثم أو خطيئة ؟ ! إن بنتى زوج الملك مسعود، وكان يحبها حبًّا جمًّا، ولما رأى عبلة شغف بها حبًّا ، وانصرف عن بنتى وأساء عشرتها ، فأنا الآن أسحر عبلة حتى أبغضها فيه وأبغضه فيها ليعود إلى بنتى كما كان معها .

فخدعه هذا القول ، وظن أنها صادقة فيما قالت ، وعدل عن قتلها . ولكن مقرى الوحوش لم يخدعه هذا الكلام ، وسل سيفه فى التو والساعة ،
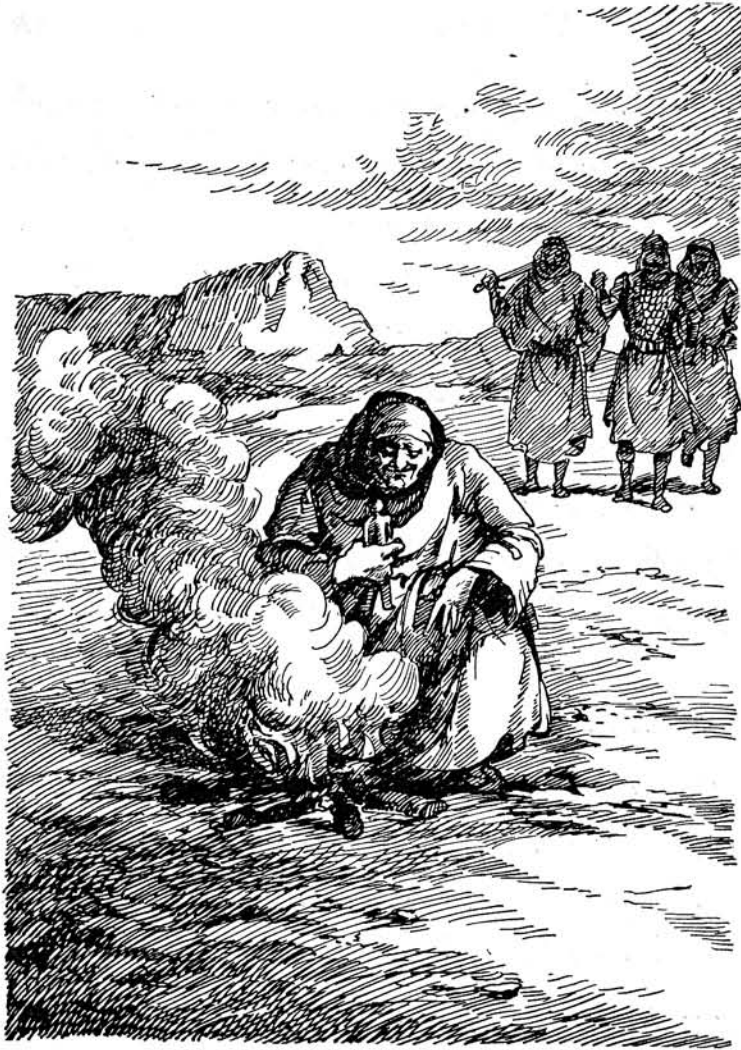
عنترة وعروة ومقرى الوحوش يقتربون من العجوز الساحرة

وضربها ضربة فشقها نصفين ، وتركوها وذهبوا إلى أمرهم الذى خرجوا له . وهو قتلهم الملك مسعودا . وبينما هم سائرون سمعوا شيبوباً ينادى وهو فى حالة غير عادية : يا عنترة ! ! يا عنترة ! !

فدلفوا إليه ، ليتبينوا حالته ، فأخبرهم أن عبلة قد خرجت من خبائها حاسرة مسفرة ، وعلى وجهها هائمة ، لا تعرف من يحدثها ، ولا تعى ما يقال لها ، ولا تنفك رافعة صوتها صائحة : النار ، النار . . . وقد تركتها ملقاة على الأرض بين الخيام ، ومن حولها العبيد والجوارى المسخرات لها.

فقال عنترة : لقد قتلنا العجوز الساحرة فماذا بقى من آثارها ؟ ! !

فقال مقرى الوحوش : أصبح الأمر يسيراً ، معى حجاب كان قد كتبه لى أحد قساوسة الشام وأنا صبى وهو يقى حامله من السحر وأذى العفاريت والجن ، وهو الذى كان السبب فى جرأتى على العجوز وقتلها ، فخذه يا عنترة وضعه على ساعد عبلة ، وستجدها فى الحال قد شفيت وكشف عنها ما ألمّ بها .

ووضع الحجاب على ساعد عبلة فأفاقت من غفلتها ، ورجع إليها رشدها كأن لم تكن قد أصابها مس من شيطان ، أو أذى من ساحرة أو ساحر . ولما سألوها عن حالها قالت :

كنت فى خيمتى فدخل علىّ شبحان رأساهما رأسا دابة ، وأرجلهما أرجل نعامة ، فجعلا يطوفان من حولى وهما يحدقان فىّ ، فما لبثت أن

شعرت بنار تتمشى فى جسمى ولا تزيد إلا توهجا واشتعالا ، ولم أفق إلا بين أيديكم الآن ، وعلى خير ما كنت عليه من صحة وعافية .

* * *

خرج الملك مسعود مشيعاً بما يليق به من الحفاوة والإجلال ، وسار هو وأصحابه إلى ديارهم ، ولما كان على مقربة من كثيب الصفا ، أمر رفاقه أن ينتظروه حتى يعود ، وعرج هو وجندلة على البلقاء الساحرة ، وهناك وجداها مشقوقة بالسيف نصفين بجوار نار لا تزال متقدة ، فبكى جندلة لقتل زوجه بكاء مرًّا ، ورجا الملك أن يأخذ بثأرها ، أما الملك فقد ملئ قلبه حزناً ويأساً ، ورجع أدراجه حتى التقى برفاقه ، وهناك استأنفوا المسير إلى الديار وهو عازم على أن يدبر أمر قتال بنى عبس وشفاء غليله منهم .

أما عنترة فقد نزل على رأى عبلة بأن أخفى أمر مسعود معها وما دبره لها عن الملك قيس بن زهير ، حتى لا يزيد حديث الناس عنها اتساعاً ، وتتخذه الأعداء فرصة سانحة للأقاويل ، ورميها بكل خطيئة هى منها بريئة ، إلى أن تهيأ لعنترة أسباب الانتقام ، بقتل هذا الملك الأثيم .

وجعل عنترة يخرج هو وعبلة ومقرى الوحوش وزوجته مسيكة وعروة ابن الورد إلى مكان نازح ، يقضون نهارهم فيه ، فى معزل عن العامة ، ثم يعودون إلى بيوتهم عند المساء ، حتى تتاح لهم الفرصة المنشودة ،

وأحس الناس من عنترة تلك العزلة ، وأوّلوها تأويلا يطمئنون إليه فقالوا : إنه يحب زوجه ، ويريد أن يستريح إلى طول صحبتها والجلوس إليها أياماً .

أما الملك قيس فقد لامه على انقطاعه عنه ؛ فقال :

أيها الملك ، إنى أردت بذلك أن أشعر مقرى الوحوش بالإيناس وحب التودد إليه ، فهو رجل غريب ، هجر أهله ووطنه من أجلنا ، وأبلى بلاء حسناً فى كشف الضر عنا ، والقتال فى صفوفنا ، فأحببت أن أكرمه بهذه المصاحبة ، إكرامه إيانا بالوفاء وحسن المعاشرة ؛ فوقع هذا القول من نفس قيس موقع الرضا والقبول .

٣

وذات يوم خرج عنترة وعبلة ، ومقرى الوحش ومسيكة ، وعروة بن الورد ، والهطال ابن أخته وأبطاله ورجاله ، إلى مكانهم الذى اعتادوا الاختلاف إليه كل يوم . وبينما هم فى مجلسهم يتحدثون إذ رأوا خيلا تطارد فارساً تبغى قتله بعد أن أثخنوه جراحاً بأسنة رماحهم ، وهو يحاول الهرب والنجاة من أيديهم حتى لا يقتلوه ، فنهض عنترة إلى جواده وأدرك الفارس فى لمح البصر ، فأنزل الويل بأعدائه ، وكشف عنه كربته ،

وكان هذا الفارس هو الحارث بن زهير . ولما أفاق الحارث من همه ، جلس إلى عنترة وصحبه يحدثهم بما كان من أمره فقال :

قد أقمت وليمة واسعة لبنى زياد ، حضرها كثير من الناس خاصهم وعامهم ، فأكلوا وشربوا ثم جلسوا يسمرون بعض الوقت ، وحدث أن تناول عمارة الوهاب عنترة ببذىء القول ، فقلت لهم :

لقد نسيتم فضل عنترة بينكم ، فإنه كثيراً ما كشف الضر عنكم ، ورد الأعداء عن نسائكم ، ولولاه لكنتم الآن تراباً . فقال عمارة :

أما تستحى من الإشادة بهذا العبد الزنيم ، وما هو إلا وغد ضعيف لو أرادته سيوفنا لقطعته إربا إربا .

فقلت : لقد كذبت وافتريت ، ومحوت وجودك بهذا الإفك المبين ، أليس هذا العبد الضعيف فى رأيك هو الذى جعلك تسلح فى ثيابك حينما أردت عبلة لك ، وقابلتها عند الغدير ، وكنت إذ ذاك عبرة ومثلا ؟ !

فما لبث عمارة أن سل سيفه ، واستصرخ قومه وصحبه فهبوا يقتلوننى ، ففررت منهم لما خفتهم على نفسى ، حتى قيض الله لى عنترة ، ورد كيدهم فى نحورهم ، وأضاف إلى نعمه على بيت أبى زهير نعمة إنقاذى من هذه الفئة الظالمة اللئيمة . ثم قال : لا لوم عليك يا عنترة إذاما كرهت بنى زياد ، وفعلت بهم ما تشاء من الأذى والكيد ، فهم قوم منافقون ،

لا يذوقون للمروءة طعماً .

فقال عنترة : سأريهم ؟ ! ولكن بعد حين ،وفى غير هذا المكان ، فنحن فى شغل عنهم بما نتوقعه من حوادث تتمخض عنها الليالى والأيام .

وكان رفاق عنترة قد أسروا عمارة واثنين من إخوته ، فأوثقوهم بالحبال وجعلوهم تحت تصرف الحارث ، يسير بهم حيث يريد .

* * *

استشار الملك مسعود جندلة زوج الساحرة فيما يفعله ببنى عبس فقال :

لقد بعثت ابنتى فيهم متنكرة فى زى سائلة ، لتعرف من قتل منهم أمها فقالت :

ما قتلها إلا عبدهم اللئيم عنترة ؛ وذلك أنه خرج فى ثلة من فرسانه يترصدون الملك مسعوداً فى طريقه ، وهو عائد من الوليمة ليقتلوه ، فوجدوا أمى قائمة على النار تتلو عزائمها وآيات سحرها ، فانقضوا عليها ، وضربها عنترة بسيفه فقدّها نصفين .

فقال الملك : الآن ذهب ما بينى وبينهم من عهد ، وعلينا أن نرسل العيون إليهم ليعرفوا مقاتل عنترة ومسرحه ومغداه ، حتى يتيسر لنا أن نفجعه فى نفسه .

فقال جندلة : أمره معروف لدىّ ، فهو لا يفارق عبلة الليل والنهار ، ويمضى معها النهار جميعه فى معزل عن قومه فى مكان اختاره

فى أطراف المروج والغدران ، وهو يختلف إليه كل يوم ، فإذا رأيت أن تبعث إليه خمسمائة فارس ، على أن تتوزعهم ثلاث نواح يكمنون فيها ، حتى إذا ما أخذته سكرة الشراب انقضوا عليه وقتلوه ، فإذا ما عتب عليك الملك قيس ، ادعيت أن هؤلاء الفرسان من بنى كندة وبنى القين جاءوكم ليأخذوا بثأر فارسهم عمرو بن ضمرة الذى قتلتموه وأسرتم زوجته زهرة ، وسأبعث إليهم من رجالى من يريهم العذاب الأكبر ، جزاء عدوانهم ، وجزاء دخولهم أرضى من غير إذن منى .

فقال الملك : ذلك رأى جميل ، ولكن لا داعى إلى أن يكون عدد الفرسان خمسمائة .

فقال جندلة : لا بد منه أيها الملك ، فإن بنى عبس مشهورون بالحرب ولهم فى القتال بأس شديد ، وبخاصة فارسهم عنترة الذى يهزم جيشاً برمته وحده ، وفيهم فارس يدعى مقرى الوحوش عرف بالطعن وشدته ، ولا يشق له فى ذلك غبار ، على أن عنترة لا ينبغى أن يخرج إلى هذا المكان المنعزل وحده ، ولا بد أن يكون قد صحب معه جماعة من فرسانه ، يكونون عدته عند الحاجة .

فقال الملك : لا بأس فيما ترى ، فأنفذ العدد الذى تختاره ، ولتكن أنت على رأسه .

* * *

وبعد أن أنقذ عنترة الحارث من أيدى بنى زياد وبدد جمعهم ، رأوا خيلا هاجمة من بطن الوادى يتصايح فرسانها : يا آل كندة ، يا آل القين ! هلموا إلى عنترة وجماعته ، واضربوا منهم السوق والأعناق .

ثم تلت هذه الخيل خيل أخرى فانضمت إلى الأولى وأحاطوا بعنترة ومن معه ، يريدون بهم شرًّا مستطيراً ؛ فقال عنترة لصحبه :

دونكم هؤلاء الرجال حتى أذهب إلى نسائنا اللاتى تركناهن وحدهن ، فإنى أخشى أن يكون قد أصابهن من الشر ما أصابنا الآن . وما كاد عنترة يقرب من مكانهن حتى رآهن قد أسرتهن طائفة أخرى على رأسها جندلة زوج الساحرة ، فثارت ثائرته ، وأرخى بينهم العنان لجواده ، وأطلق لسيفه فيهم إرادته ، فمزق جمعهم ، وفرقهم فى الفلاة ، وكشف عن نسائه ضر الأسر ، وأعاد إليهن ما كان لهن من حرية وعزة . أما جماعة عنترة فقد أبلوا فى قتال الخيل الهاجمة بلاء حسناً ، وقتلوا كثيرا ، ولكنهم لا يزالون صابرين . وترك عنترة النساء فى حراسة شيبوب ، ووصاه أن يرد خيل قيس إذا رآها قد حضرت لنصرته ، لأن الأمر لا يدعو إلى معونة ، ثم أسرع إلى رجاله ، فوجد الحرب قائمة ، وذلك لأن الفئة التى شتتها عنترة جمعت جموعها وانضمت إلى الفرسان الذين يحاربون رجاله ، فكان وقعهم شديداً عليهم ، وكادوا ينالون منهم ، فنزل عنترة فيهم نزول القضاء ، وفرقهم فى البيداء ، يجرجرون أذيال الفشل والهزيمة ،

ثم عادوا إلى نسائهم وأهليهم ، فوجدوا قيساً وجنوده على أحر من الجمر ، وكان كلما همّ أن يذهب إليهم بجنوده منعه شيبوب تنفيذاً لوصية أخيه .

وقص عنترة على قيس قصتهم وقال : ما كان هذا إلا بتدبير الملك مسعود ، وسوف تريك الأيام صدق هذا .

فقال قيس : كيف يكون ذلك وقد أخذنا عليه ميثاقه أن يكرمنا ويجيرنا ويدفع عنا ؟ ! فهل بينكما شيء يجعلك تسيء الظن به ؟ !

فقال عنترة : نعم !

وقص عليه عنترة قصة عشقه عبلة وأنه يسعى إلى أن يرملها بقتلى حتى ينالها .

فقال قيس : قد ألتمس لك العذر فى هذا الظن ، لأن المحب غارق إلى ذقنه فى سوء ظنونه ، وغيرته لا تنطفىء لها نار ، ويحسن أن تتريث حتى نتبين لمن هذه الخيل ، ثم نجزيهم بما فعلوا ، فقد حدثنى شيبوب أن هذه الخيل من بنى فهر وبنى التمين ، فقال عنترة : أخى تحدث إليك بما سمع ، وستكشف لك الأيام عن صدق ، ثم عاد قيس وهو فى شغل بما حدثه به عنترة .

رجع فرسان مسعود إليه ، وحدثوه بما لاقوا من الخيبة فاشتدت محنته ، وعظم اضطرابه وقلقه ، والتفت إلى حاشيته قائلا : أشيروا علىّ بما ترون أن أفعله ، للحصول على عبلة فلن أستطيع عنها صبرا .

فقال شيخ كبير منهم يدعى مثير الفتن قتل له فى هذه المعركة أخ وابن عم :

ما كان لنا أن نقعد على ضر أصابنا ، ومن العار أن نسكت على قوم آويناهم فى ديارنا ، وقاسمناهم مراعينا ومياهنا ، ثم لا نجد منهم إلا كل ضر وأذى ، وغدا سيذكرنا عبدهم فى أحاديثه ، كما ذكر جهينة بعد هزيمتهم ، وقتل بشر سيدهم .

على أننا أيها الملك أصبحنا لا نأمن عليك من شره ، فقد عرف أنك تحب زوجه ، وأعتقد أنه الآن جاد فى طلبك ، ومن الرأى أن نأكله قبل أن يأكلنا .

فقال : وعليكم تدبير حيلة نفك بها ما بيننا وبينهم من عهد وذمة .

فقال جندلة : الحيلة فى أيدينا ، وذلك أن أذهب أنا إليهم حاملا إلى قيس تهنئتك إياهم بما نالوا من نصر على الأعداء ، وأنك أقسمت أن تنصفهم من أعدائهم بخيلك ورجلك ؛ فإذا خدعه هذا القول واطمأن إليه كل الاطمئنان ، لوحت له بأنك تخطب عبلة وتود من قرارة نفسك أن تكون زوجاً لك ، وإذ ذاك نتخذ إجابته علة القطيعة ، ونبدل ما بيننا وبينهم من علاقة ، ثم نشعلها عليهم حرباً طاحنة ، ولا يكون عليك فيها عتب أو ملامة . فارتضى الملك له هذه الحيلة ، وفى الصباح جمع إليه وجوه عشيرته ، وأطلعهم على ما اعتزمه ، فاطمأنوا إليه ورضوا به .

٤

عقد قيس مجلس الشورى من إخوته ووجوه بنى زياد ، ومن يعتمد عليهم فى الرأى من حكماء قومه ، ثم أعلن فيهم قائلا :

يا بنى عمومتى ، يبدو لى أن ما أخبرنى به عنترة من عشق الملك مسعود زوجته ، فيه شيء من الحق إن لم يكن كله حقاً، وإذا كان الأمر كذلك فنحن قادمون على خطر لا ندرى مداه .

فقال عمارة : إن هذا الملك عاشق ، وسلطانه قاهر ، وليس من الحكمة مبادلته العداء، وخير لنا أن نزوجه عبلة ، سواء أرضى عنترة أم سخط .

فقال الحارث : أترضى يا عمارة أن يعشق أحد أختك أو زوجك ، فتفسح له صدرك ، وتمنحه إياها باختيارك ؟ !

فقال عمارة : إذن أكون لئيما ذليلا ، لا حمية عندى ولا نخوة .

فقال الحارث : وكيف تشير بأخذ عبلة إلى عاشقها ، رغم أنف زوجها ؟ !

فقال عمارة : لا تسوى العبد بالحر .

فقال الحارث : إن العبد عندى هو الذى يهاب المعارك ، ويخشى أطراف الأسنة ، وأنت تعلم أن عنترة فارس شجاع لا يهاب المنايا ، ولا يخشى نزالا ،

ولا يعرف الهزيمة ، وكم له من أياد بيضاء فى ذلك عليكم وعلينا .

فقال عمارة : وماذا أنت فاعل إذا طلب الملك مسعود عبلة ؟

فقال الحارث : الأمر إذن لأخى وأخيك ، وكلنا نعلم أنه إن تعرض لعبلة فإن عنترة كفيل بالانتقام لنفسه منه .

ودخل إذ ذاك عنترة فسلم وجلس ، وقرأ فى وجوه القوم أنهم كانوا يتحدثون فى أمر ذى بال . فهم أن يسألهم عما كانوا فيه يتحدثون ، وإذا بجندلة زوج الساحرة قد رأوه قادماً إليهم على ناقة ، وقد لبس ثياباً واسعة الأكمام ، وعلى رأسه عمامة كبيرة . ولما وصل إلى مجلسهم أمر عبده أن يعقل الناقة بفضل زمامها ، ثم دخل عليهم وحيا وسلم ، وبعد أن جلس قال لقيس : أيها الملك العظيم ، إن ملكنا مسعودا قد بعثنى إليك حاملا تهنئته الطيبة بسلامة فارسكم عنترة من تلك الخيل الهاجمة ، وقد هاله أمر قدومها ، وما بلغه إلا عند المساء ، وقد أنفذ فى إثرهم رجاله ، لمطاردتهم ، ولم يرجع إلى الآن أحد منهم ، وقد أعلن أنه لن يسكت عن بنى فهد وبنى القين حتى يذلهم ، ويحك بالرغام أنفهم ، إكراماً لكم وإعظاماً ، ورغبة فى التقرب إليكم .

ففرح قيس وقومه ، وشكروا للملك مسعود حسن جواره ، وكريم مروءته ؛ فانتهز جندلة فرصة هذه الحال السارة الشاكرة ، وجعل يطنب فى بيان ما يحمله ملكه لبنى عبس من حب عظيم إلى أن قال : ومن شدة

محبته لكم كلفني أن أخطب إليه عبلة ، زوجة عبدكم عنترة ، لأنه فى رأيه أخذها من أبيها غصبا ، ولا يصح زواج قام على القهر والغلبة .

ولما سمع عنترة منه ذلك قام إليه غير مظهر غضباً أو كراهية ، فلما دنا منه قبض على رقبته بيده ، وحمله وخرج به أمام الخيمة ، وضرب به الأرض ضربة قضت عليه ، ثم حمل جثته وربطها على ناقته وسار بها العبد إلى مسعود وأخبره بما كان من بنى عبس وحاميتهم عنترة ؛ فصاح الملك مسعود فى قومه :

تلك عاقبة رأيكم ، وليس لكم إلا أن تدفعوا خزيها عنكم ، فانفروا لقتال بنى عبس ، فقد أصبحت أموالهم وجواريهم ونساؤهم حلالا لكم .

وما جاء الصبح حتى كانت مياه عراعر تموج بالجنود ، وكلهم يتلظى حماسة ، ويتقد حمية ، وكان للملك مسعود خال يسمى عقابا ، قد قل حياؤه ، ونقص عقله ، وضرب فى الحرب والنضال بحظ أوفى ، فقال مسعود : يا خال ، تلك حال فاجعة ، وغمة ليس لها كاشفة ، وأملنا فيك عظيم ، وأمل ابن أختك أعظم ، فقد براه الهوى ، وأحرقه الجوى ، فإن صالحوك وأعطوك عبلة فاعف عنهم واصفح ، وإن لجوا فى عنادهم فاقض فيهم بسيفك ، ولا تبك على أحد منهم مات أبداً .

فقال عقاب : إن كان فى سياستك أن تعفو وتصفح ، فكلف أحداً غيرى ، فأنت تعلم أن خالك عقابا إذا سل سيفه ، فلن يغمده حتى يشفى نفسه.

فقال الملك : لك ما تشاء وتختار ، ولعلك تجدهم حيث كانوا نازلين ، فإنى أخشى أن يكونوا قد رحلوا فزعاً وهربا ، فقال : وأينما يكونوا فإن عقاباً مدركهم .

ثم سار عقاب يقدم الكتائب ، فوجد بنى عبس قد رحلوا إلى جبال الغمام ، ليتخذوا منها معصماً لنسائهم وجواريهم ، ويتفرغوا للدفاع والقتال وصد هجمات الأعداء ، فاقتفى عقاب بجنده أثرهم ، وذهب إليهم حيث يقيمون ؛ وهناك أوقدوا للحرب ناراً حامية ، فى وقت كان الليل فيه قد أقبل وكسا الظلام الأودية والربا ، فاهتزت بالفريقين جنبات الأرض وتخضب أديمها بالدماء ، واستمر الفريقان يقتتلان حتى طلع الصبح ؛ وكان عنترة يجول فى الأعداء ويصول ، ويكر ويفر ، ولما ظهرت الشمس أبصر عنترة عقابا يستحث جنده ، وينذرهم هزيمة منكرة ، فعلم أنه قائدهم ، ووثب عليه وثبة ، وطعنه طعنة مزق بها أمعاءه ، فسقط على الأرض ميتاً ، وشاع بين الجند موته ، فولوا الأدبار هاربين ، لهول ما لاقوا من بنى عبس ، وما رأوه فى عنترة من شدة وبأس ، واطمأن بنو عبس فى محلتهم بعد أن غنموا أموالا كثيرة ، وقد دخل عمرو بن مالك على عبلة أخته ، وجعل يثنى على عنترة ، ويشيد بفضله على قومه ، وأنه لولاه لكان بنو عبس فى يد الأعداء أسرى ، ففرحت عبلة إذ سمعت لأول مرة أخاها يمدح عنترة ويعلن فضله .

ثم استراح عنترة ساعة جاءه على أثرها مقرى الوحوش يعرض عليه أن يغزو الملك مسعودا الآن فى عقر داره ، قبل أن يتصل بالقبائل والحلل ، والأعوان والأصدقاء والحلفاء ، فيشتد جانبه ويقوى ساعده ، ويكلفنا من رهق الحرب ما نحن فى منأى عنه الآن .

فقال عنترة : ما كنت أحب أن أضع لأمتى حتى أقطع دابر الملك مسعود وقومه ، ولكنى أردت لصحبي راحة حتى الصباح .

فقال مقرى الوحوش : ما أردت بهذا إلا أننا لاننام عن عدو لا يغفل عن طلبنا والنيل منا .

استأذن عنترة ملكه قيسا أن يغير على الملك مسعود فى عقر داره ، ورجاه أن يقيم هو وإخوته فى محلتهم مستريحين مطمئنين حتى يعود إليهم مظفراً منصوراً ؛ فأذن له قيس وأبى أن يتخلف عن مصاحبته أو يقصر فى معونته ، وقال للكبراء من رجاله : اجمعوا جموعكم لغزو ديار الملك مسعود فقد نقض عهده ، وبدل قوله ، وبدا خبث نيته ، وأبان لنا أن عنترة كان على حق فى بغضه ، والعتب علينا فى موالاته والاطمئنان إليه .

وسار قيس وجنوده ومعهم عنترة وصحبه ، بعد أن أرخى الليل سدوله ، تاركين على البيوت الربيع بن زياد وإخوته .

٥

ارتقب مسعود عودة خاله عقاب ، ومعه عبلة والجوارى ومغانم كثيرة من بنى عبس ، ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ، فقد جاءته البقية الباقية من رجاله المهزومين الهاربين ، وأخبروه مصير الجند وعقاب خاله ، فخاب أمله ، وقال : لو كنت أعلم أن هؤلاء القوم سيفعلون بنا ما فعلوا ما أحب قلبي واحدة منهم أبداً ، ولقد فرطت فى الأمر بتخلفى عن مصاحبة خالى ، ولو نفرت معهم لدمرتهم تدميرا .

فقال أحد رجاله :

يخيل إلىّ أنك لو ذهبت إليهم ومعك من فى الأرض جميعاً لدفنوهم وما تركوا لهم باقية ، ما دام فيهم ذلك العبد الأسود الذى ملأ الأرض من حسامه رعباً ، وأرى أن نأخذ أهبتنا فى ديارنا ، لندافع عن أنفسنا إذا ما غزينا فإنى مرتقب هذا الغزو منهم .

فقال الملك مسعود : سيسرك ما أنا فاعل بهم ، فاصطبر وارتقب .

ثم استنصر ملوك اليمن ، واستنفر كل فارس وراجل من أبناء الوطن ، ولما اجتمع له ما أراد من جيوش جرارة ، تملأ الأرض هيبة ومخافة ،

عوّل على المسير وهو على يقين أنه لا محالة منتصر . وفى ذلك الوقت ظهر بنو عبس فاستعدت الجيوش للقائهم ، ولما التقى الفريقان أذن فيهم مؤذن العذاب ، وبطل من قوم مسعود ما كانوا يعولون عليه من الأسباب ، وجعل عنترة يبعثر الرءوس ، وصحبه من خلفه يحمون ظهره ، حتى أقبل الليل بظلمته ، فنادى منادى الملك مسعود أن يقف القتال حتى ينشق الليل عن صبح مضىء ،وفى أثناء هذه الهدنة الموقوتة ، عقد الملك مسعود مجلس مشورة ، واتفقوا على أن يعتصموا بالجبال قبل أن يطلع النهار ليحافظوا على الحريم والعيال ، وقالوا لا طاقة لنا بفرسان بنى عبس ، ولا سيما عبدهم الأسود عنترة ، وغاظ قولهم هذا الملك مسعودا فقال :

لا ألومكم على ما أبديتم من عجز وخور ، لأن الإنسان لا ينبغى له أن يحمل فوق طاقته، ولكنى لن أسكت عن قبيلة بنى عبس ، وسأعكف على إيذائها ، وقد علمتم أنى أرسلت إلى القبائل والعشائر ، وما هم إلا قادمون إلى معونتنا ، وسترون بأعينكم ما ينزل بهذه القبيلة من ذل ومهانة ، وأرى أن تعجلوا قبل الصباح بتحصين العيال فى الجبال ، وتنفروا لقتال هؤلاء القوم فى تلك الفرصة السانحة ، التى سيقاتلهم فيها كثير غيركم ، فطابت نفوسهم ورضوا أن يقاتلوهم ، وما جاء الصباح حتى كانوا جميعهم متحصنين فى الجبال ، وعرف بنو عبس ما فعلوه فقال الملك قيس لهم : لا تسكتوا عن قتالهم ، ولكن عجلوا بالقضاء عليهم قبل أن

يصل إليهم فرسان القبائل والعشائر ، وحينئذ يتخذون منهم معصماً وقوة ، ولا ننال منهم نيلا ، وإنى أعلم أن الملك مسعوداً بعث من يستنفر كل من فى بلاد اليمن ، وربما كثر علينا عددهم ، وأرسل إلى جبل الغمام من يشغل قلوبنا على الحريم والعيال ، فقال عنترة :

لعن الله من يترك الملك مسعودا بعد هذا اليوم يعود إلى قومه ، وصاح صيحة زلزلت لها قلوب الأعداء فى صدورهم ، وحمل عليهم حملة جبار عنيد ، وتبعه بنو عبس فى حملته ، فنكس البنود ، ومزق الأحشاء والكبود ، وقد أخلص فى الدفاع عن الملك مسعود أربعة من العبيد ، فكانوا يحيطون به ، ويدفعون عنه الخطر إن أحدق به ، ولما رأوا عنترة مقبلا على ملكهم أرسلوا إليه أربع حراب ، فأصابت إحداها مقرى الوحوش وجرحته ، وأصابت الثانية جواد عروة ، وخابت الثالثة ، ووقعت الرابعة فى جسم عنترة فنزعها ورمى بها العبد فى صدره ، فخرجت من ظهره ، ثم شق العبد الثانى بسيفه نصفين ، وقتل شيبوب العبد الثالث ، وطعن مقرى الوحوش العبد الرابع فى أحشائه فأهلكه ، أما عروة فإنه ركب جواداً من الخيل الشاردة ، بدلا من جواده الذى قتله العبد ، وأراد أن يتبع عنترة ، ولكن عنترة أدرك الملك مسعوداً وضربه بسيفه ضربة فصلت رأسه عن جسده ، ونشط بنو عبس ففتكوا بأعدائهم فتكاً ، وعرف فرسان مياه عراعر أن ملكهم مسعوداً قد قتل ، فاقشعرت جلودهم ، وانخلعت

قلوبهم ففروا مهزومين ، وجمع بنو عبس الغنائم والأسلاب .

وصاح قيس إذ ذاك فيهم أن ارجعوا عنهم ، فإنهم سيعكفون فى معاصمهم حتى يأتيهم فرسان القبائل الذين بعث الملك مسعود فى طلبهم ، وعودوا إلى عيالكم فى جبل الغمام ، وسيكون لنا معهم يوم مشهود ، فاستحسنوا رأيه ، وساروا ليلا ، وفى مقدمتهم عنترة يطوى أمامهم الأرض طيًّا ، وفى مطلع النهار أشرفوا على جبل الغمام ، وعلم بهم أهلوهم ففرحوا بقدومهم ، وقد كثرت الدواب حتى تحدث الناس أن ينزلوا إلى القيعان ، فقال قيس لهم :

يا بنى عمى : لا ينبغى أن نترك معصمنا من جبل الغمام حتى ننظر ما يكون من أمر العشائر والفرسان الذين أنفذ إليهم الملك مسعود ، وإنى أعلم أن كل من فى بلاد اليمن سيأتينا ويأخذ ثأره منا ، ولا نستطيع أن نحكم هذه البلاد إلا إذا قهرنا فرسانها هذه المرة ، وحينئذ تعرف قدرنا ، وتذل لأمرنا ، وكان عنترة يصدقه ، ويعده بالنصر وحسن المآل .

ولم يمض على قدومهم غير أيام قلائل حتى بدت طلائع القبائل وكان أول من وصل بنو فارق ثم بنو العنقا ، وتوالى قدوم القبائل حتى ملأت البر والآكام . وأحاطوا ببنى عبس من كل جانب ، وأصبح جبل الغمام كأنه مركب فى بحر زاخر من المنازل والخيام ، وفزع بنو عبس إذ رأوا ما أحاط بهم من كثرة من جاءوا لغرض واحد هو سحقهم وإبادتهم ،

ولكن قيسا لم يتركهم فريسة لخور اليأس ، وضعف الاستسلام ، فثبت قلوبهم ، وقوى عزائمهم وقال :

يا بنى عمى ، ليكن لكم فىّ وفى إخوتى أسوة حسنة ، تجعل لكم ذكراً طيباً ، ولسان صدق فى العرب ، فسنخوض أمامكم معارك القتال ، لنفوز بالموت كراماً ، أو النصرة أعزة ، وما زال بهم يحضهم على القتال ، حتى باعوا أنفسهم فى سبيل الدفاع والجهاد ، وقال عنترة :

لم يبق لنا خلاص إلا بحد السيف ، والآجال محدودة ، ولا دوام فى الدنيا ، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ، ولا تثقل الحرب إلا على ربات الخدور ، وإن قلبى ليحدثنى بالفوز المبين ، وسوف ترى ما يحل بهؤلاء الأقوام من سيفى ورمحى ، وسأخلد لكم بعون الله نصراً يكون فخراً لكم فى فم الزمان ، ففرح قيس بقوله ، وأثنى عليه وشكره .

ونزل بنو عبس إلى البرية ، متأهبين لخوض المعارك الحامية ، وعنترة وصفوة أصحابه أمامهم ، غير آبهين بالأعداء وكثرتهم ، وقد أبدى عنترة فى هذه المعركة العجب العجاب ، حتى روى من شاهد بعينه أنه كسر اثنتين وخمسين رمحا ، وما كانت طعنته تقع إلا فى مقتل ، ومن يد ثابتة غير مروعة ، وانقشع عن قيس همه وفزعه ، وقال :

ما أنجبت الدنيا مثل عنترة ، ولا رأت حرب مثله ، وقد جفلت خيل الأعداء بين يديه ، وأصبح فرسان اليمن يصيحون من حوله ،

ولا يجسرون أن يقربوا منه ، وصار هو يخوض بجواده فى دماء القتلى وجثثهم ، وتلمس كل منهم سبيلا لنجاته ، فمنهم من انزوى فى بطون الأودية ، ومنهم من تعلق برءوس الجبال ، من هول ما قاسوا وذاقوا ، وقد ملأ عنترة قلوبهم فزعاً ورعبا ، بما قتل من فرسانهم ، وبما رأوه من قدرة عنترة على الحرب قدرة تجعل النصر على الدوام حليفه ، وتسوى عنده بين الجيوش قليلها وكثيرها ، قويها وضعيفها .

وبينما عنترة تارك جنده إلى الميمنة ، ليشد أزر جماعته ، إذ لقيه عمارة فناداه : قف يا عنترة فلا تذهب ، فإن عروة وصحبه ظاهرون على أعدائهم ، وليسوا فى حاجة إلى معونة ، وسأعود أنا إليهم لأكشف عنهم ما عسى أن ينزل بهم من بأس ، فنظر إليه عنترة نظرة غرق فيها عمارة ، ثم قال : شكراً لك ولاعدمناك للشدائد ، وبعدها أرخى عمارة العنان لجواده فساح به فى القفر حتى التقى بسرية يمنية قادمة من ناحية ديار الملك مسعود لتعين جنده ، ولما أرادوا أن يسألوه عن مصير الحرب القائمة بين بنى عبس والملك مسعود ، صاح أحدهم قائلا :

هذا عمارة أخو الربيع بن زياد ، وقد قتل أخاً لى وابن عم حينما دخلوا هذه الديار ، ولا أبغى الآن إلا أن أحبسه فى قيوده ، وأسوقه إلى عائلات من قتلهم أخوه ليقتصوا منه .

فقال آخر :

وما نحن بحاجة إليه ، ولكن نأخذ ملابسه وسلبه ، ثم نخلى سبيله إلى حيث يشاء بعد أن نكون قد أوجعناه ضرباً .

وكذلك فعلوا ، فجردوه من جواده وملابسه وأطلقوا سراحه ، فسار يمشى فى ذلة ومهانة حتى لقيه بعض عبيد لقبيلة فأمسكوه فأشبعوه ضرباً واتهموه أنه هو ذلك السارق الذى يتغفلهم ليلا ثم يسرق خيلهم واحداً فى إثر واحد ، وساقوه إلى ملكهم فأمر بشده فى أربعة أوتاد ، ثم جعلوا يضربونه ضرباً مبرحاً وهو يستغيث ولا راحم يرحمه حتى ضجت نساء الحى ، وذهبن إلى شيخ القبيلة يشفعن عنده لعمارة ، فأمر أن يخفف عنه ، فربط العبيد عنقه فى حبل طويل ، وجعلوا يجرون هنا وهناك من حول القبيلة حتى أشفوا على بنى عبس ، وما كاد عمارة يلمح أخاه الربيع وعنترة حتى نادى عنترة مستصرخا .

والتفت الربيع إلى عنترة قائلا : أدرك أخى عمارة قبل أن يمزق ، فأنت ملاذنا فى الشدة ، وغلبت على عنترة فطرته ، فركب جواده ، وسل سيفه ، وخف إلى عمارة منجدا ، فخشى العبيد أن تدور عليهم دائرة العذاب والموت ، ففروا هاربين ، وجاء عنترة بعمارة ، وقد بدت على وجهه علامات الخيبة والذلة وبعد أن قص عليهم قصته ، بعثه عنترة إلى الخيام والمضارب ، ووصى به العبيد والجوارى .

ولما وجد الأعداء أنهم غير قادرين على بنى عبس ، اقترحوا عليهم

المبارزة بطلا بطلا ، لتكون فاصلة بينهم ، مقررة نهايتها مصيرهم .

وفى الصباح تقدم وارق بن طارق لمبارزة مقرى الوحوش ، فلم يكن نصيبه منها إلا الفشل ، فخلفه فى المبارزة وثاب بن ناهض فغلب وأسر ، فحمل فرسان العدو على مقرى الوحوش جملة ، فأطلق فيهم سيفه ، وقتل منهم عدداً كثيرا ، ولما رأى عنترة وجنده هذه الحملة ، تدفقت سيولهم على الأعداء فسقوهم موتاً وبيلا وفشلا ذريعاً ، وكان الليل قد أقبل ، فوقفت رحى القتال حتى يجىء الغد .

وفى الصباح كان العدو قد جاء لمعونته خمس قبائل على رأسهم فارس شديد البأس يسمى نابح بن النهاش ، ويلقب عفريت السواحل ؛ وكان قد سمع عن عنترة ما حفزه على أن يلتقى به ، طمعاً فى قتله ، والحظوة بالذكرى الخالدة من دونه : وقامت حرب طاحنة ، لم ير بنو عبس مثلها قسوة وشدة ، إذ أسر فيها مقرى الوحوش ، وأغمى على عنترة من شدة ما جاهد وأبلى ، وكثرة ما جرح وأفنى ؛ ولما كانت هدنة الليل اجتمع رجال بنى عبس عند ملكهم قيس وقالوا :

بلينا الآن بهزيمة لا قبل لنا باحتمالها ، وما كان لنا أن نهجر أوطاننا سائحين فى بلاد اليمن وغيرها ، معرضين حياتنا لأخطار قد نعجز عن دفعها ، وها نحن أولاء قد أغمى على حاميتنا ، وأسر مقرى الوحوش ، وأحس الجند قوة الأعداء ، وقد يكون مصيرنا فى الغد أسوأ مصير .

فقال عمارة : أمرنا لم يبلغ عسره ، حتى تفزعوا وتخافوا ، فنحن قادرون على أن نرد كيد الأعداء إلى نحورهم ، وإذا مات عنترة فى إغماءته هذه فلا بد لى من تزوج عبلة قبل أن نبرح بلاد اليمن .

فقال الربيع لأخيه غاضباً :

لا تزال فى تيه من ضلالك ! ! إن عنترة إذا قضى عليه فلن يبقى منا ديار ولا نافخ نار .

وبينما هم يتحدثون إذ جاءهم البشير قائلا :

إن عنترة قد أفاق من إغماءته ، وقد أذاع فى الجند أن يتأهبوا غداً للقاء الأعداء ، وسيريهم العذاب ألواناً والموت عيانا ، حتى يرتدوا على أعقابهم خاسئين . وأراد عنترة أن يطمئن على عروة بن الورد ومقرى الوحوش اللذين أسرهما الأعداء ، فأمر أخاه أن يتنكر ويندس فى جماعتهم ليقف على أحوالهما ، وينبىء عنترة ما هما عليه من صحة ومعاملة ، حتى يدركهما إن وجدهما فى حاجة إلى ذلك سريعاً .

لبس شيبوب السواد ، ولطخ وجهه بالدم ، وبدل معالمه حتى خفيت شخصيته على أخيه عنترة ، ثم سار حتى كان بين الأعداء فى خيامهم وهم يتجادلون ؛ فمنهم من ينتصر لعنترة ويعلن أن أحداً فى الدنيا لا يقدر عليه ولا يستطيع قهره ، ومنهم من ينتصر لعفريت السواحل ويعلن أنه الفارس الفرد الذى لا يغلبه أحد ، ومنهم من جاء يطلب قتل عروة

ومقرى الوحوش، لما صبّاه على أهليهم وفرسانهم من القتل الشنيع ، ومنهم من أتى لشرائهما ليجعلوهما فداء لأسراهما؛ فقام شيبوب وقال :

أيها العرب الكرام ، لقد أتيت من ديارى أبغى المجد والفخار بما أقدمه بين أيديكم من شجاعة تذل رقاب بنى عبس الذين ظهروا على عرب اليمن وأذاقوهم كئوس الهزيمة ، ولن أتمكن من ذلك حتى أضع يدى عبدهم الأسود فى قيود الأسر والمذلة .

فأنس العرب إليه وجعلوه يقاسمهم حديثهم ، ويجرى معهم فيه هنا وهناك ، حتى ألح عليهم النوم ، وقام كل إلى خيمته ، ليسلم نفسه إلى مضجعه .

انفض المجلس ولم يبق فيه إلا عفريت السواحل وعبيده الذين وكل إليهم حراسة عروة ومقرى الوحوش وأراد شيبوب أن يخدع عفريت السواحل حتى يطمئن إليه ، فأثنى عليه قبل أن ينهض إلى فراش نومه ، وقال : حيا الله الأمير العظيم، وثبت بعدله سلطانه، وأدام عز الناس بدوام عزك ، ونصرك على أعدائك ، ونعم الناس بالحياة فى ظلال أمنك .

فغره هذا الثناء المستطاب ، وأحب أن يعرف هذا العربى فقال :

انتسب أيها العربى.

فقال شيبوب : إنى من بنى كلب بن وبرة .

فقال عفريت السواحل : وأراك تلبس السواد ؟

فقال شيبوب :

لبسته من أجل مسعود بن مصاد الذى كان جزاؤه من بنى عبس الذين أكرمهم وآواهم فى دياره أن قتله عبدهم الأسود ، وقد بعثنى إليك ابنه حسان، يرجو منك أن تسلم له الأسرى من فرسانهم ، ولك عنده ما تشاء من الأموال والنعم ، وأمنيته الكبرى أن تسلمه عبدهم وحاميتهم عنترة أسيراً .

فقال عفريت السواحل :

إذا انشق الليل عن ضوء الصباح فدلنى على من تشاء منهم ، وأنا آتيك به مصفداً فى أغلال الهوان .

فقال شيبوب :

وأخبرك بشيء جديد؛ ذلك أن الملك النعمان يتمنى أن يقع عنترة وفرسان العبسيين فى يده ولك عنده الحظوة والزلفى والمال الوفير .

فلمح عفريت السواحل من ذلك الحديث بغضاً لبنى عبس يتأجج فى صدر ذلك العربى ، فاطمأن إليه ، ورغب فى مقامه ، ثم سأله :

ما اسمك ؟ وما كنيتك ؟

فقال شيبوب :

اسمى شعيب ، وإذا مزح سيدى نادانى أبا رباح أو أبا جناح ؛ وأحب أن أذكرك بوصية سيدى حسان، وأن تمحو بسيفك عنه عار

الهزيمة، فقد أصبح اعتداده بك واعتماده عليك .

فقال عفريت السواحل : سأحقق له أمنيته.

ونهض قائماً إلى مضجعه ، ووصى عبيده أن يكرموا مثوى هذا العربى الذى يسمى شعيبا ، وأن يكون معهم فى حراسة الأسرى من بنى عبس .

دخل شيبوب فى صحبة العبيد خيمتهم التى فيها عروة ومقرى الوحوش فعرفه عروة بن الورد، ولم يعرفه مقرى الوحوش ، وجعل يتحدث إلى العبيد فى بيان ساحر وأسلوب خادع ، حتى شغفوا به ، وأقبلوا عليه ، وأنسوا به ، ثم قال لهم :

من فارس الشام من هذين الكلبين الأسيرين ؟

فقالوا :

ذلك الطويل الأسمر ، الذى تبرق عيناه زرقة .

فقال :

قبح الله بطنا حملته، وبودى أن يأخذه سيدى حسان هو وعبدهم الأسود الذى يدعى عنترة ، فيجعل منهم عبرة وذكرى .

فأبى مقرى الوحش أن يسمع لهذا الحديث ويسكت عنه فقال :

إنك غير بالغ فى عنترة مرادك ، وسترى أنه سيحيق بكم من سيفه كل شر، وأنه هو الذى سيطلقنا من الأسر ، فلا كنت ولا كانت رؤيتك .

واتخذه لهم ولبنى عبس خصما مبيناً ، ولم يصدق ما أسره إليه عروة من أن شيبوبا هو الذى يحدثه ، واعتقد أنه من عبيد حسان بن مسعود، ولكن شيبوبا لم يرجع عن موقفه من عروة ومقرى الوحوش موقف العدو الخصيم المبين .

٦

جاء الصباح وكلا الفريقين قد أخذ أهبته لتلك الحرب الضروس ، وبدا فيهم عنترة كاشراً عن أنيابه، متوقد العزم ، متوثب السلاح ، تحفزه عوامل قوية ؛ فألمه لأسر عروة ومقرى الوحوش عظيم، وأسفه على تأخر شيبوب أخيه أليم، وبكاء مسيكة زوج مقرى الوحوش عليه يحز فى قلبه، وهجرة قومه من ديارهم تلهب الأسى فى صدره ، فبرز فى الميدان يقول :

هل من مبارز ؟ فبرز إليه فارس طويل القامة، يرتدى ثياباً قصيرة الأكمام ، وهو حافى القدمين ، وليس له درع تقيه أخطار القتال، سيما الفروسية والشجاعة فى وجهه وشكله؛ فلما قرب منه عنترة أنكر هذه الحال وظن أن الأعداء سخروا منه فأدركه الغيظ ، وهم أن يطعن هذا الفارس طعنة قاضية، وإذا بفارس آخر أشد من الأول خلقاً يعترض سبيل عنترة، فطلبه عنترة ، وجعل يتبعه والفارس يعدو أمامه ، فلما دنا منه ، كشف

الفارس عن وجهه وقال :

هنئت بنجاة أصدقائك من الأسر ، واليوم تدور على أعدائك الدوائر ، ومد الله فى حياتك كما مد فى حياة شعيب أخيك .

فأدرك عنترة سريعاً أن هذا الفارس مقرى الوحوش ، وأن الفارس الأول الذى أهمله عروة بن الورد ، ففرح فرحاً عظيما ، وسأله :

كيف كانت نجاتكما ؟ ! ومن شعيب هذا الذى تدعو له بدوام الحياة ؟ !

فقال :

أما شعيب هذا فهو أخوك شيبوب وقد أخبر عفريت السواحل أن اسمه شعيب حتى لا يعرفه أحد ، وأما نجاتنا فقد كانت على يديه ؛ وقص عليه قصة أخيه إلى أن قال :

ولما اطمأن العبيد إليه وأغرقوا فى نومهم قام شيبوب ففك قيودنا وأركبنا خيلا من الخيل الشاردة ، وقال لنا : اندسوا بين الطوائف كأنكم تريدون الحرب والمبارزة ، حتى تجتمعوا فى الميدان بأخيكم وفارسكم عنترة .

فقال عنترة :

وأين شيبوب أخى ؟! وكيف تركتموه ؟ !

فقال مقرى الوحوش :

تركناه حول خيمة نابح بن النهاش المدعو عفريت السواحل ، فقد

أفهمنا أنه لن يغادر محلته حتى يذبحه ويريح الناس منه ، فسبقناه إلى هنا كما أمر ، ولا ندرى عنه بعد ذلك شيئاً .

فقال عنترة :

إنى لأخشى أن يعرفه نابح فيصيبه منه الضر والأذى ، ولكن الله معه ، اذهب أنت الآن إلى زوجك لتطمئنها وتجد راحتك .

فذهب مقرى الوحوش إلى زوجته مسيكة ولم يلبث معها طويلا ، ورجع إلى واجبه يقاتل ويبارز ، وقد فرح بنو عبس بنجاة عروة ومقرى الوحوش ، كما عجب الأعداء أن رأوا هذين الفارسين يسلمان أنفسهما دون قتال أو مبارزة ، وذهبت بهم ظنونهم كل مذهب ؛ فمن قائل إنهما كانا فى جيش عفريت السواحل عيونا لبنى عبس ؛ ومن قائل إنهما من الأسرى ، وقد تمكنا من الهرب ؛ وقد أحب عنترة أن يصرفهم عن التفكير فى أمر هذين الفارسين حتى لا ينتبهوا إلى شيبوب أخيه الذى قد لا يزال فى ديارهم ، فأعمل فيهم سيفه ، وأوقد للحرب ناراً حامية ، وما كاد النهار ينتهى حتى كان عنترة قد أهلك منهم خلقاً كثيراً وأسر مائة فارس من عظمائهم ، وفترت فى العدو سورة الحرب ، وعم الميدان فترة سكون كأنها هدنة ، حتى تقدم نابح بن النهاش لمبارزة عنترة .

صحا نابح من غفوة نومه ، وتفقد عروة ومقرى الوحوش فلم يجدهما ، فسأل عنهما عبيده فقالوا :

لقد نهضنا من نومنا، فلم نجدهما ولم نجد شعيبا؛ فقال:

ما دام شعيب قد افتقدتموه فلا بد أن يكون هو الذى فك قيودهما وسرحهما إلى قومهما، ولئن صح ذلك فإنى ضارب عنقه وأعناقكم، وقد دخلنى الشك فيه ليلة أمس عندما سمعت لغته وعرفت أنها حجازية، ولكنى ظننت أن مولاه اشتراه لما كان يبدو عليه من فصاحة اللسان، وتوقد الجنان، وسلامة المنطق، وكمال العقل؛ وبينما هو فى حديثه مع عبيده إذ أقبل عليه ثلاثة فرسان من فرسان حسان بن مسعود، فحيوه وقالوا:

إن مولانا حسانا يقرئك السلام، ويرجو أن يدوم له عندك ما كان بينك وبين أبيه من كريم الصحبة، وعظيم المروءة، وصادق المعونة، وقد علمت ما فعله بنو عبس بملوك اليمن وغيرهم من الكيد والمهانة، ويرجو منك أن تحفظ لديك الأسرى منهم، وأن تخرج إلى الميدان فتقود عبدهم عنترة أسيراً مهاناً، ولك عنده ما تشاء من المال، فليس له الآن عون سواك.

فزادت حيرته وتعجبه وقال:

ألم يصل إليكم الأسرى مع شعيب عبد مولاكم ؟ ! !

فقالوا:

ليس فى عبيدنا من اسمه شعيب، وإذا كان قد جاءكم عبد على أنه

مرسل من مولانا حسان وأخذ منكم أسرى فما هو إلا من هؤلاء القوم الذين أعيوا الملوك كيداً، وأثخنوا القبائل قتلا وتشريدا.

فاتقد جسمه غضباً على عبيده، وضرب رقابهم بسيفه، وانتهت بذلك حياتهم، وخف إلى الميدان طالباً عنترة.

فلما بصر به عنترة قلق على شيبوب أخيه، ولكنه سمع نابحاً يقول:

أيها اللئام الخونة، نقتنصكم فى المعارك، ثم تفرون من أيدينا بالمكر والحيلة! ! لن أبقى بعد الآن على رجل منكم يقع فى أيدينا. فعلم عنترة أن أخاه لا يزال حيًّا، فزال ما بصدره من قلق عليه.

ثم تقدم كلٌّ إلى صاحبه، وإن أحدهما ليحمل أملا فى النصر مثل الذى يحمله الآخر، وإن قلوب الفريقين لتخفق طمعاً فى فوز فارسها، ثم قام بينهما جهاد يحير الأبصار، فتعلقت أنفاس القوم، مرتقبين مصير هذين الفارسين؛ ودام بينهما الكر والفر، والهجوم والدفع، حتى أرهق عنترة صاحبه، وأحس نابح فتوراً، لا يستطيع قتالا معه، فطلب إلى عنترة أن يمهله حتى يأخذ راحته، ويفضى إليه بما فيه صلاحهما، حتى ينتهى به ما بينهما من حرب وكفاح.

فقال عنترة:

قد أمهلتك فخذ راحتك وقل ما شئت.

فقال:

عنترة يهزم نابحا النهاش

فقال : أريد أن تخبرنى بما فعل عبدكم شعيب فى إطلاق الأسرى من أيدينا ، ثم تترك لى فرصة أذهب فيها إلى قومى ومن معهم ، فأسرحهم ، وأكفيك شر هذه الحرب الناشبة ، وإن لم تفعل ما أعرضه عليك الآن ، فسأحمل عليكم غداً بجموعى هذه فلا أبقى منكم أحدا .

فقال عنترة : إنك لغبى ّ غوى ّ مبين ، لقد غرك شيطانك فجرؤت على مبارزة عنترة ، فلما أذلك وأعنتك أردت أن يعفو عنك ، ثم سولت لك نفسك بعد هذا أن تهدده بجموعك التى لا تغنى عند عنترة شيئاً ، ثم طعنه بزجاج رمحه فى صدره ، فكسر له أضلاعاً أربعا ، فسقط على الأرض ، وما أسرع ما رأى عنترة أخاه شيبوباً جاثماً على صدره فشد وثاقه ، وساقه أمامه ، وعنترة من أخيه شيبوب فى حيرة ، فقال :

أين كانت غيبتك يا أخى ؟

فقال : فى طلب هذا الوغد اللئيم ، وكنت قد عولت بعد إطلاقى عروة ومقرى الوحوش من أسرهما أن أكيد لعفريت السواحل هذا وأقتله ، ولكنى لم أتمكن من ذلك لشدة حرصه ، وسرعة تيقظه من نومه ، فجعلت أرقب حركاته ، واعتزمت الإقامة بينهم حتى أفك رقبة من أخذوهم أسرى من قومى ، ما دام أمرى فيهم خفيًّا ، حتى صرعته ووقع بين يديك ، ففررت من بينهم لأوثق كتافه بين يدى أسيراً مهانا .

ولما رأى الأعداء ما حل بزعيمهم نابح بن النهاش اتفق رأيهم على

أن يزحفوا جملة واحدة ، صباح غدهم ، وبغير ذلك لا يستطيعون حرباً ، ولا يجدون نصراً ، وعلم بنو عبس ذلك منهم ، فعقدوا عزمهم على لقائهم ، وبث عنترة فى روحهم المعنوية قوة ، ووعدهم فوزاً مبيناً ، وإن كانوا مثل جموعهم هذه أضعافاً مضاعفة ، وبينما هم فى باكورة الصباح يتأهبون إلى الزحف على بنى عبس الذين نزلوا إلى سفوح الجبال للقائهم ، إذ رأوا غبار جيش قادم إليهم من ناحية ، فما كادوا يبصرونه ، ويرسلون الظنون من حوله ، حتى أبصروا غبار جيش قادم من ناحية أخرى ، وما لبثوا يفكرون فيه حتى بدا لهم فى الجو غبار جيش من ناحية ثالثة ، فوقفوا واجمين ساهمين ، تذهب بهم الأقاويل والهواجس فى أمر هذه الجيوش القادمة كل مذهب ، ولا يهتدون إلى سبيل ، وبعد مدة غير طويلة كان الجيش الأول بين الفريقين ، وقد جردت سيوفه ونادى قائدهم فى قبائل أعداء بنى عبس : أن أغمدوا سيوفكم ، واذهبوا لشأنكم ، فهذا عمرو بن هند أخو الملك النعمان قد جاء يعلن الرضا عن بنى عبس أقربائه ، ويدفع عنهم كيد أعدائهم ، ويردهم إلى ديارهم سالمين فرحين .

وكان الجيش الثانى لنعمة بن الأشتر صاحب جبل الدخان ، وقد حضر بين الفريقين أيضاً ونادى قائده :

أبشر يا أبا الفوارس فقد جئنا لنكون أعداء لمن عاداك ، نسقيه كأس الردى فى التو والساعة ، وذلك اعترافاً بفضلكم علينا .

وكان الجيش الثالث للملك عباد من بنى القين فنادى :

أبشروا يا بنى عبس بالنصر ونيل الرغائب ، وادعوا بطول العمر ودوام العز ، لقاهر الجبابرة عنترة بن شداد .

ولما رأت قبائل اليمن ذلك المدد الذى لا طاقة لهم به خافوا العطب ، ففروا هاربين ، وقد جاء هذا الملك لأنه خشى على ابنته زوج نازح بن أسيد بن خزيمة من بنى عبس أن يصيبها سوء .

٧

أما جيش النعمان فقد كان سبب بعثه حزن المتجردة بنت زهير ، وإلحافها على النعمان أن يغفر لهم ما اعتبره منهم خطيئة ، وأن يردهم إلى أوطانهم ، حتى تنقشع عنها سحب الهموم التى أطبقت عليها مدة غيبتهم ، وكان النعمان يحبها حباً جمّاً فعرض الأمر على وزير عمرو بن نفيلة ، فأشار عليه هذا أن يرسل جيشا يردهم إلى أوطانهم ، فإنهم قوة لا يستهان بها ، ولم يجترحوا خطيئة أو إثماً ، ولم يكن جهادهم وحربهم إلا كبتاً لظالم ، أو إنصافاً لمظلوم ، أو تقريراً لفضيلة ، أو عوناً على مكرمة ، فقال النعمان : أخشى أن يعود النزاع بينهم وبين بنى فزارة ، ويتعذر علينا إصلاح ذات البين بينهما .

فقال عمرو : يترك بنو عبس أرضهم إلى الفزاريين كفدية لمن قتل من رجالهم وفرسانهم ، وينزل بنو عبس فى ديار بنى عامر ، ويتخذونها وطناً ومقاماً وعند ذلك ينتهى ما بينهما من خصومة ، فنزل النعمان على رأى وزيره ، وبعث جيشه فى صحبة أخيه .

وهناك أخبرهم عمرو بن هند أن أخاه النعمان أرضى بنى فزارة بأرضكم ، وجعل لكم عنها أرضاً واسعة ، من أرض بنى عامر ، فرضى بنو عبس بذلك ، ودعوا للنعمان بدوام العزة والسلطان ، ولكن عنترة قال لهم وهم يتشاورون :

إن عودتنا على هذه الحال التى بينها عمرو بن هند منقصة لنا ومذلة ، فكيف نترك أرضنا لأعدائنا ، لنقيم فى أرض غير أرضنا ، وإنى لأرى أن مقامنا فى بلاد اليمن أهون على نفوسنا وقعاً من مقامنا فى ديار بنى عامر تاركين أرضنا قسراً ، وقد عولت هذا العام أن أملككم أرض اليمن ، وأجعل ملوكها وقبائلها فى قبضة أيديكم ، يأتمرون بأمركم ويتبعون إشارتكم ، ويدينون لكم بالطاعة والاحترام .

فقال عمارة الوهاب وأخوه الربيع :

من الخير أن نعود إلى حيث أمر الملك النعمان لنقيم فى جواره ونستريح من هذا العذاب الذى نلقاه من تلك الحرب التى لا تقف رحاها ، وإذا

كان عنترة قد طابت له بلاد اليمن ورغب أن يتخذها دار مقامة فله ما يشاء ويختار .

فأدرك عنترة أن الربيع وإخوته يبغون إبعاده ، فأسرها فى نفسه ولم يبدها لهم ؛ وهنا أعلن قيس أن الخير فى العودة ، ولا داعى إلى الجدال فى أمرها ؛ وأخذوا يعدون العدة للرحيل ، وأطلقوا سراح من أسروهم من قبائل اليمن ، وأمرهم عنترة أن يكون السير سريعاً ، لا تثاقل فيه ولا تباطؤ ، حتى يخرجوا من بلاد اليمن دون أن يتعرض لهم أحد من القبائل بضر أو أذى ، فإن أهل اليمن لا ينسون ما فعلوه بهم من قتل وأسر ، واستمروا سائرين على عجل حتى اضطرهم وعثاء السفر ومتاعبه أن يستريحوا ثلاثة أيام فى منزلة يقال لها : عربان جابر ومياه الرباب .

ولما نزلوا للراحة فى مياه الرباب جمعهم عمرو بن هند وقال لهم :

أنتم قوم أبطال ، خلقتم للمنايا فكنتم أحياء ، وأحب منكم فى هذا المكان أن تقوموا بحراسة أموالكم خير قيام ، ولا تمكنوا أحداً من العرب أن تمتد يده إليها بنهب أو سوء ، ولهذا لا تدعوا صغيراً أو كبيراً منكم دون عمل ، فإنى أخاف أن يعتدى على أموالكم أحد من أهل تلك المحلة ، فيكون هذا العدوان لى سبة ، وذلك ما لا أحبه ولا يحبه النعمان أخى ؛ فقالوا :

نعم وسنفعل ما أردت .

وقام كل منهم بحراسة الأموال فى المراعى وغير المراعى ، حتى الملك قيس نفسه شاركهم فى هذه الحراسة ، أما أموال عنترة ومقرى الوحوش فقد أقسم عروة بكل قسم أنها فى الحراسة من ضمن أمواله ؛ فكان عنترة ينتظره مساء كل يوم قادماً هو ورجاله من المرعى .

وذات يوم من أيام الراحة تأخر عروة فى الحضور عن موعده هو ورجاله فقلق عليه عنترة ، وتحدث إلى مقرى الوحوش فى ذلك وأراده على أن يصحبه فى الخروج للقائه ، فإن وجداه رجعا معه ، وإلا قاما بالبحث عنه حتى يعرفا مقره ، وبعد أن ركبا جواديهما ، وتقلدا سيفيهما ، وعدة حربهما ، وهمّا أن يخرجا ، حضر رجال عروة وليس فيهم ، ولما سئلوا عنه قالوا :

طارد وحشا فى الفلاة ، وجعل الوحش يجرى وعروة يتبعه ، ونحن فى انتظاره ؛ ولما طالت غيبته ، وجاء موعد عودتنا ولم يحضر ، تفرقنا فى الصحراء للبحث عنه فى كل ناحية ، ولما لم نعثر له على أثر رجعنا لنخبركم ، وهذا سبب تأخرنا عن الحضور فى موعدنا .

فقال عنترة ، والهمّ آخذ بمجامع قلبه :

لا يعوقه عن الحضور إلا حابس أو آسر أو قاتل .

فقال مقرى الوحوش :

ليس لنا أن نتوانى عن أخينا ، ونسكت عن البحث عنه .

فخرج عنترة وأخوه شيبوب ومقرى الوحوش إلى حيث يبحثون عنه ، وقد وصى عنترة أباه شدادا أن يرحلوا إذا حان موعد رحيلهم دون أن ينتظروه ، فإنه سيلحق بهم فى ديار بنى عامر .

وقبيل استئناف الرحيل جاءهم النذير أن بعضاً من أموال قيس وأموال بنى زياد قد سلبت وأخذت بالغلب والقوة ، فقام كل فارس إلى جواده وعدة قتاله ، وخرجوا جميعهم ليردوا أموالهم وينتقموا لأنفسهم ممن اعتدى عليهم ، وسأل الملك قيس عن عنترة فقال له أبوه :

لقد خرج هو وأخوه شيبوب ومقرى الوحوش ليبحثوا عن عروة بن الورد الذى خرج أمس إلى المراعى ولم يعد ، فابتأس هو وجماعته ، وخشوا أن يصيبهم لغيبته ضر لا يقدرون على دفعه .

وبلغ ذلك عمرو بن هند فغضب وابتأس ، وقال لقيس :

كان علينا ألا نلبث فى هذه الأرض طويلا ، فقد أوصانى أخى أن نقطعها فى أقرب وقت ، وألا أترككم حتى أصل بكم ديار بنى عامر ؛ وإنه ليؤلمنى أن أكون معكم ، ويؤخذ منكم عقال بعير ، أو يعترضكم أحد بأقل ضير ، ثم ركب فى جيشه وسار مع بنى عبس إلى لقاء من اعتدى عليهم بنهب أموالهم .

وكان الذى أخذ أموالهم دريد بن الصمة وأخوه عبد الله وزوج ابنته سبيع بن الحارث المسمى بذى الخمار ؛ خرجوا فى خمسين فارساً إلى

إلى بلاد اليمن يبتغون الرزق ، فلما كانوا بأرض جابر هذه وجدوا أموال بنى عبس من الكثرة بحيث أثارت فيهم العجب والدهشة ؛ فقال دريد :

قبل أن نسوق شيئاً من هذه الأموال ينبغى أن نعرف من يملكها من قبائل اليمن ، فاستنكر سبيع هذا القول وقال :

ما خرجنا إلا لنهب الأموال مهما يكن صاحبها ، ولو وقعت فى يدى أموال أبى لأخذتها وقاتلته عليها ، ما دمت فى حاجة إليها ، ثم التفت إلى الفرسان وأمرهم أن يسوقوا إلى ديارهم ما يستطيعون من هذه الأموال ، على أن يتأخر هو ومن معه ، ليدفعوا عنهم أصحابها ، إذا ما نفروا من خلفها ليردوها .

وسار الفرسان فرحين بما أخذوا من الأموال ، ومن خلفهم دريد وعبد الله أخوه وسبيع زوج ابنته فى عشرة فوارس أشداء ، وبعد قليل من سيرهم ، رأوا غبارا من خلفهم ، فوقف دريد ومن معه وقال :

يا سبيع ؛ قد تبعك أصحاب الأموال .

فقال سبيع :

وماذا علينا أن يكون القادمون أصحاب الأموال أو غيرهم ، لتذهب الفرسان بما نهبوا وأخذوا ، وليبق معنا منهم عشرة فرسان ، وسأدرأ عنكم بهم كيد القادمين .

فقال دريد : قد نال الكبر من بصرى ، فانظر وصف لى هؤلاء الذين جاءوا على أعقابنا .

فقال سبيع :

أرى جيشاً مؤلفاً من فرق وطوائف يتبع بعضها بعضاً ، ففى أوله فرسان جيادهم حمر ، ورماحهم سمر ، جعلوا أسنة رماحهم بين آذان خيولهم .

فقال دريد :

تلك حال لا نعرفها إلا فى بنى زياد وبنى عبس وعدنان ، إلا أن يكون فرسان اليمن قد حاكوهم فيها ؛ فمن وراءهم يا سبيع ؟

فقال سبيع :

فرسان على خيولهم يجرون رماحهم من ورائهم ، وهم أكثر ثباتاً وأهدى سبيلا .

فقال دريد :

تلك صفة بنى قراد الذين منهم عنترة بن شداد ، فهل من خلفهم أحد ؟

فقال سبيع :

وعلى آثارهم طائفة رماحهم على أكتافهم ، وهيبة الملك تشع من وجوههم ، يدفعون الخيل دفعاً .

فقال دريد :

وتلك صفة الملك قيس بن زهير وإخوته وفرسانهم ، فإن صدق حدسى

ولم يخطئ تقديرى وظنى ، فإن النعمان قد رضى عنهم ، وبعث فيهم من يدعوهم إلى أوطانهم وديارهم ، فإذا كان الأمر كما قررت فالرأى عندى أى نرد إليهم أموالهم ، حتى نكون فى منأى عن غضب النعمان وغضبهم .

فقال سبيع :

لقد نال من قوتك ورأيك أرذل العمر ، فلو حضر النعمان نفسه ما رددت إليه عقال بعير ، حتى أثيرها حرباً شعواء ، يصلى نارها كل من تعرض إلينا من الأعداء ، ورضى بموقفه هذا أخوه عبد الله ، وتأهبوا للحرب وصد القادمين .

كان سبيع بن الحارث من الفرسان البارزين الذين لا يشق لهم غبار ، حتى زعم بعض العرب أنه مثل عنترة أو أشد ، وسولت له نفسه أنه الفارس الفرد ، الذى لا يجسر على لقائه أحد ، فكان بذلك قوى الإيمان بنفسه ، لا يرهب سطوة ، ولا يخشى منية .

قامت الحرب واشتد الطعن والضرب ، فسالت الدماء ، وبعثرت الأشلاء ، وأذن مؤذن الموت بين الفريقين ، وذاق كل منهما الأمرين ، فقتل فرسان سبيع ودريد وعبد الله أخيه ، وردت أموال بنى عبس ، وفر سبيع خشية الهلاك والعطب ، بعد أن أذاق خصومه مر

الطعان ، ثم استأنف العبسيون الرحيل ، وإن قلب قيس معلق بعنترة وفى قلق من أجله .

دلف عنترة وأخوه شيبوب ومقرى الوحوش إلى الصحراء ، مرتادين الأماكن والمراعى التى كان يذهب إليها عروة ، وجعل شيبوب يجوس خلال النواحى هنا وهناك جميع النهار ، ثم يرجع إلى أخيه من غير شيء من عروة ؛ وفى اليوم الرابع أسلم شيبوب ساقيه إلى الريح وجعل يعدو لعله يرى أثرا لعروة ، أو يقف على خبر له ، حتى رأى خياماً مضروبة فأمها راكضاً ، واختلط بعبيدهم وجعل ينادى :

يا سادة العرب ! حياكم الله وبلغكم الأرب ، عبد رقيق الحال ، كثير العيال ، شرد منى خمسة جمال ، بين المضارب والخيام ، وقد حفيت أقدامى فى البحث عنها ، وأصبحت لا قرار لى من أجلها ! فأحاطوا به وقالوا :

ما رأينا شيئاً منها . ثم سألوه عن قبيلته ومولاه وعن حاله ، فقال :

إننى من بنى دوران ، ومولاى هابيل بن عبد اللات ، وهو رجل فظ غليظ القلب ، ولعلكم تعرفونه فإنه من أرضكم .

وهنا أظهر ألمه فأنّ وبكى ثم قال : وقد سلمنى جماله لأقوم على رعيها وشئونها ، فشرد منى خمسة جمال ، ونفرت خلفها لأبحث عنها ، ولكنى إلى الآن لم أعثر على واحد منها ، حتى كنت بينكم على تلك الحال البئيسة .

إلى بلاد اليمن يبتغون الرزق ، فلما كانوا بأرض جابر هذه وجدوا أموال بنى عبس من الكثرة بحيث أثارت فيهم العجب والدهشة ؛ فقال دريد :

قبل أن نسوق شيئاً من هذه الأموال ينبغى أن نعرف من يملكها من قبائل اليمن ، فاستنكر سبيع هذا القول وقال :

ما خرجنا إلا لنهب الأموال مهما يكن صاحبها ، ولو وقعت فى يدى أموال أبى لأخذتها وقاتلته عليها ، ما دمت فى حاجة إليها ، ثم التفت إلى الفرسان وأمرهم أن يسوقوا إلى ديارهم ما يستطيعون من هذه الأموال ، على أن يتأخر هو ومن معه ، ليدفعوا عنهم أصحابها ، إذا ما نفروا من خلفها ليردوها .

وسار الفرسان فرحين بما أخذوا من الأموال ، ومن خلفهم دريد وعبد الله أخوه وسبيع زوج ابنته فى عشرة فوارس أشداء ، وبعد قليل من سيرهم ، رأوا غبارا من خلفهم ، فوقف دريد ومن معه وقال :

يا سبيع ؛ قد تبعك أصحاب الأموال .

فقال سبيع :

وماذا علينا أن يكون القادمون أصحاب الأموال أو غيرهم ، لتذهب الفرسان بما نهبوا وأخذوا ، وليبق معنا منهم عشرة فرسان ، وسأدرأ عنكم بهم كيد القادمين .

فقال دريد : قد نال الكبر من بصرى ، فانظر وصف لى هؤلاء الذين جاءوا على أعقابنا .

فقال سبيع :

أرى جيشاً مؤلفاً من فرق وطوائف يتبع بعضها بعضاً ، ففى أوله فرسان جيادهم حمر ، ورماحهم سمر ، جعلوا أسنة رماحهم بين آذان خيولهم .

فقال دريد :

تلك حال لا نعرفها إلا فى بنى زياد وبنى عبس وعدنان ، إلا أن يكون فرسان اليمن قد حاكوهم فيها ؛ فمن وراءهم يا سبيع ؟

فقال سبيع :

فرسان على خيولهم يجرون رماحهم من ورائهم ، وهم أكثر ثباتاً وأهدى سبيلا .

فقال دريد :

تلك صفة بنى قراد الذين منهم عنترة بن شداد ، فهل من خلفهم أحد ؟

فقال سبيع :

وعلى آثارهم طائفة رماحهم على أكتافهم ، وهيبة الملك تشع من وجوههم ، يدفعون الخيل دفعاً .

فقال دريد :

وتلك صفة الملك قيس بن زهير وإخوته وفرسانهم ، فإن صدق حدسى

فرثى العبيد لحاله ، وأطعموه وسقوه ، وأجلسوه بينهم يتحدثون إليه ويتحدث إليهم ، ثم رأى دخاناً فى ناحية ، وعندها هرج ومرج ومظاهر فرح وسرور فقال سائلاً : هذا الذى أراه عرس أم وليمة ؟

فقالوا : لا عرس ولا وليمة ، وإنما صاحبنا قبض على رجل من بنى عبس ، وقد عزم على قتله بعد أن يعذبه بالنار ، لما فعله بنو عبس فى أرض اليمن ورجالها ، ففرح شيبوب بعثوره على خبر عروة ، ولكنه فى حزن أليم من أمر تعذيبه ، وقال : لقد أخطأ صاحبكم فيما يقوم به الآن من تعذيب ، فقد لقينى طائفة من بنى عبس تبحث عن فارسها فى كل مكان ، وقد بثت عيونها وجواسيسها فى كل محلة ، وقالوا لى بعد أن شرحت لهم حالى ، وضياع جمالى ، إن أنت دللتنا عليه أخلفنا عليك جمالك؛ وأعطيناك المال الذى تشترى به نفسك ، ويقيك شر حاجتك ، وقد عقدنا العزم على أن نلحق بالمحلة التى تجده فيها البوار ، ونذيق أهلها بؤس الحياة وذلهم ونهبهم ؛ وقد اختاروا لهم مخبأ يكمنون فيه حتى تأتيهم جواسيسهم بما يجدون ، والصواب عندى أن يذهب صاحبكم بفرسانه إلى هذا المخبأ ، ويعمل فيهم سيفه حتى يبيدهم وينال أموالهم التى نهبوها من أرض اليمن ، ففرحوا بما حدثهم وقالوا : سنخبر صاحبنا بما قلت وسيمنحك أموالاً جمة ، إن أنت أرشدته إلى مخبأ بنى عبس ، فهو منهم على أحر من الجمر ، ويود أن يلقاهم ، ليقتل منهم ويأسر ويغنم ، وسيكون سروره

أعظم ، إن وجد فيهم عبدهم الأسود عنترة ، فقال : إنى لا أعرف منهم أحداً ، ولكنى رأيت فيهم عبداً أسود طويل القامة ، متقلداً عدة حربه ، بارزاً بينهم بشجاعته وفروسيته ، فاذهبوا إلى صاحبكم وأخبروه ، عسى أن ينال منهم مأربه ، فانفض العبيد من حول شيبوب وأسرعوا إلى صاحبهم ، وكل منهم يبغى أن يسبق بالخبر إلى سيده ، حتى يحظى بالبشرى من مال أو غيره ، وانتهز شيبوب فرصة انفضاضهم وركب متن الريح وطار إلى أخيه عنترة .

٨

كان عروة مولعاً بالصيد ، فطار وهو فى المرعى بجواده خلف وحش، وما زال يعدو خلفه حتى أبعد فى الصحراء، وكان الوحش سريع العدو بحيث لم يتمكن الجواد من أن يدركه ، ولما آذنت الشمس بالمغيب أراد أن يعود أدراجه إلى المرعى ، وإذا بصميد بن مانع عائد من بنى هوازن فلمحه وهو عائد ، ولم يكن يعهد فى هذا المكان أحداً يسير فيه ، فأمر أصحابه — وكانوا ألف فارس — أن يطبقوا على عروة ويحضروه بين يديه، حتى يتبين حاله ، وكيف جاء إلى هذا المكان الذى لا يطرقه أحد . فسأله : من أنت ؟ وما جاء بك إلى هذا المكان ؟ فأنكر عروة نفسه وقال : أنا

رجل من أرض العراق ، وملكنى النعمان وقد فررت منه ، إذ قتلت رجلاً يعزه ، وليس هناك من يجيرنى من يده ، فسحت فى الأرض هائماً ، تتلقفنى ناحية فى إثر ناحية ، وليس لدى زاد أطعمه إلا ما تجود به الأرض من نبات أو حيوان ، حتى وقعت فى يدك ، وأنا أحس جوعاً وعطشاً ، فرق صميد لحاله ، وأراد أن يخلى سبيله ، ولكن بعضاً من أصحابه عرفه فقال : لا يغرنك ما تسمعه من زخرف القول وكذبه ، فإن الفارس الذى يحدثك عروة بن الورد العبسى ، ولولا أنه متعب ما كنا قدرنا على أسره ، إلا بعد جهد جهيد، وبعد أن يكون قد أفنى نصف رجالنا بسيفه ؛ ولكن عروة لا يزال عند موقفه ، وكذب ما قاله عنه بعض أصحاب الملك صَميد . فقال صميد : أوثقوه بالحبال وخذوه معكم ، فإنى سأرهقه وأعذبه ، حتى ينطق بالحق، ولما استقر به الرحيل فى دياره أنحى عليه بالتعذيب الأليم حتى أقر أنه من بنى عبس وعدنان، رسل المنايا ،وقال : إن الملك قيس بن زهير أوفدنى إلى الملك النعمان، بكتاب إلى أخته المتجردة زوجه يسألها فيه عن حالها ، ويطلب إليها أن تسأل النعمان زوجها ، أن يرد بنى عبس إلى ديارهم فإنهم ما هجروا أوطانهم إلا خوفاً منه ، ولكنك عوقتنى وحلت بينى وبين تأدية رسالتى ، وخير لك أن تتركنى وشأنى ، فإن خلفى عنترة بن شداد ، يجعلك وقومك تراباً إن أنت أصبتنى بسوء ، فغضب الملك واربد وجهه وقال : لو أنك كنت النعمان نفسه ما رأيت

من أسرنا إياك إلا عذاباً أليماً ، فوحق البيت الحرام ، لأشفين بتعذيبك صدور من فى أرض اليمن ، فقد بلغنى ما فعلته وفعله عبدكم الأسود عنترة بأهل اليمن وغيرهم .

ومن حسن حظكم أنكم أقمتم أسواق حروب لم أكن من رجالها ، ولو كنت فيها ما قامت لكم قائمة ، ولجعلتكم وقوداً لنارها ، ولعل الأيام تمكننى من لقاء عنترة وأسقيه جزاء ما فعل ، نكالا وقتلا .

فقال عروة : سألت رب السماء والأرض أن يجمع بينك وبين عنترة، ليجعل منك ومن قومك زاداً لوحوش الصحراء ، وطيور السماء ؛ وقد أنذرتك وقومك سوء المصير من عنترة إن أنت مسستنى بضر أو أذى، فافعل بعد ذلك ما تشاء فقد نصحت لك .

فغضب صميد بن بالغ وقال : الآن حقت عليك كلمة العذاب والقتل : فإنى إن أبقيت عليك قال الناس : إن هذا الإبقاء لم يكن منى عن صفح ومغفرة ، ولكن مخافة عبدكم عنترة ، وأمر عبيده أن يضرموا ناراً حامية ، ثم يجعلوا وقودها عروة ، ولما أوقدوا النار التى أمر بها جاءه العبيد وقالوا : نبشر مولانا بخبر جديد ، وأخبروه بما أخبرهم به شيبوب ، فقال : إذن نترك عروة هذا مصفداً فى أغلاله وقيوده ، ولنذهب بجيوشنا إلى بنى عبس فى مكانهم ، وعسى أن يكون فيهم عنترة، فأجعل منه للناس مثلا وعبرة : ثم سار إلى المرعى ومن خلفه الفرسان ، طوائف متدافعة ،

وتفقدوا شيبوباً فلم يجدوه ، فقال العبيد لمولاهم : لقد تركناه هنا وأسرعنا إلى سيدنا ، نبلغه ما أخبرنا به ، فقال صميد لجيوشه : انتشروا فى الأرض وابحثوا عنه فى نواحيها ، فما أحسبه إلا عيناً من عيون بنى عبس ، وقد يبدو لكم الساعة فى جيشهم ، يقدمه حاميتهم المسمى عنترة ، فانتشر الجيش فى ثلاث جهات ، وكانت عدته ألفين ومائة فارس ،

أما شيبوب فقد انفلت انفلات السهم إلى أخيه عنترة ، وقال له إن عروة على أبواب الفناء ، وقد حدثت العبيد بحديث ، وأمرتهم أن ينقلوه إلى مولاهم ، وعسى أن يكون فيه ما يصرفهم عن عروة إلى طلبكم — وحدثه شيبوب بكل ما قاله — فدبر الآن أمرك ، فقد يكون جيشهم على إثرى ، يطلبون الكمين من بنى عبس ، ويرجون أن يكون عنترة فيهم .

فقال عنترة : لا تدبير إلا الطعن والضرب ، وحصد الأرواح ، ولكن كم فى رأيك عدد من يخرج منهم مع صميد إلينا ؟ فإنك بتقدير العدد خبير ، وإن كنت على لقاء الأبطال غير قدير .

فغضب شيبوب لهذا وقال : والله إنى لأشجع منك يا أسود ، وسأجزيك على قولك هذا فى الغد ، فجعل عنترة يسترضيه ويستغفره ، حتى رضى عنه وقال : سيخرج فيما أقدر مع الملك صميد ألف ومائتا فارس ، غير الشيوخ والعبيد ، وسأكون بتدبيرى أقدر منك وأظهر ، فإن قوة العدد وكثرته أمام عقلى شىء لا يذكر . وأما أنت فعمادك ثباتك

عنترة يصرع الملك صميداً

وشجاعتك وسيفك وجوادك ، فإذا نفق جوادك كنت فى الميدان أعجز من فتاة ، وسأتخلى عنك هذه المرة ، لترى هل تفيدك شجاعتك عن تدبير شيبوب ورأيه ؟ !

فقال عنترة : وهل تغنيك يدك اليمنى عن اليسرى ؟ ! إنك لى خير عون إذا حزب الأمر ، وضعف الرجاء ؛ وكيف لا تحتمل من أخيك مزاحاً كله طهر وبراءة ؟ ! !

فقال شيبوب : إذا كان الأمر كما ذكرت فلا ضير علينا من احتماله ، ولننهض الآن للقاء العدو ، فهو جاد فى طلبنا الساعة . وخرج ثلاثتهم ، أما عنترة ومقرى الوحوش فقد انقضا على الأعداء ، وأثخناهم طعناً وضرباً ، حتى مزقا جمعهم ، وظهر من بينهم صميد فضربه عنترة برمحه ضربة قطعت أمعاءه ، وفر جنوده على أثرها إلى خيامهم ، وما كادوا يصلون إليها حتى دهمهم فارس بسيفه ، فجعل يجز رقابهم ، ويمزق أبدانهم ، حتى فروا هاربين ، وكان هذا الفارس عروة بن الورد .

* * *

جاء الملك صميد وجنوده يطلبون الكمين ، فشغل عنترة ومقرى الوحوش منهم طائفتين ، وأشار شيبوب إلى الطائفة الثالثة بيديه ، مشيراً إليهم أن يتبعوه ، ليدلهم على الكمين ، وما زال يلوح إليهم بيديه ويسير بهم فى الصحراء ، وهم له تابعون ، حتى بعد بهم عن ديارهم بعداً سحيقاً ، ثم

عدا أمامهم حتى اختفى عن أنظارهم ، وعرج على أحيائهم وقصد إلى عروة ، ففك قيوده وأطلق سراحه ، وكان أن لقيهم وهم هاربون ، فأروى سيفه من دمائهم ، وشفى صدره بتمزيق جمعهم ؛ واستمر هو وشيبوب فى مطاردتهم حتى التقيا بعنترة ومقرى الوحوش ، ففرح عنترة بعروة ، وبما نالوا من نصر عظيم ؛ وخرجت نساء الحى صارخات باكيات مستشفعات راجيات أن يخلوا سبيلهن ، وأن يتركوا الأموال لهن ، فرق عنترة لحالهن وأعلن فيهن الأمان ، وأنه عائد إلى دياره ، ومعه بعض خيل الأعداء بقدر حاجته إليها فى هذا السفر الطويل ، لتكون راحة لجيادهم ، وما زالوا سائرين حتى كانوا بمياه حرمل .

ونزل تلك المياه عنترة وأخوه ومقرى الوحوش وعروة ، وتحدثوا فى أمر بنى عبس ، وهل يستطيعون أن يدركوهم أو لا ؛ فقال شيبوب : خذوا راحتكم فى هذا المكان ، حتى أجول جولات فى نواحى جبال صاروخ ورمال عالج ، عسى أن أقف لهم على أثر ، أو آتيكم عنهم بخبر ، وانفلت شيبوب يشق حجب الظلمات ، وإن قلوب عنترة وصحبه ، لتستعر خوفاً على شيبوب أن يمسه الضر فى جولته ، حتى ابتسم لهم النهار عن ضحوته ، فجاءهم شيبوب وهو أشعث أغبر ، على وجهه سمات من عناء السفر ، فقال عنترة : شويت بغيبتك الكبود ، والحمد لله إذ رجعت إلينا سالماً ؛ فما عرفت عن قومك ؟

فقال شيبوب : عبروا الشباب ، والمنايا من خلفهم على الأبواب ، فقالوا : وكيف ذلك ؟ ! فقال : انطلقت فى السحر عادياً حتى وصلت الشعاب ، وكان الليل قد مضى إلا أقله ، فلبثت فيه حتى مطلع الفجر ، ولمحت فرساناً كثيرين ، حسبتهم بنى عبس ، ولما دنوت منهم أنكرتهم ، واندسست فيهم لكى أعرفهم ، فسمعت قائدهم يقول وإنه لمغيظ محنق : يا رب البيت المحرم ، انصرنى على عنترة ، وثبت سنان رمحى فى صدره ، حتى أغسل عنى هذا العار ، وتعلم العرب أنى أخذت بالثأر ، ثم أنّ أنة طويلة حانقة وقال : يا أسفا عليك يا عمرو بن ضمرة ! ! كيف تمكن منك عنترة ، وأنت القسورة ؟ ! !

فسألت بعضاً من الجيش عن ذلك فقالوا : نحن من قبائل شتى ، وقد اجتمعنا لندرك بنى عبس ، لنجزيهم بما فعلوا قتلا وتنكيلا ، وقائدنا زاجرة بن ضمرة ، الذى قتل عنترة أخاه عمراً ، ولم أكد ألتقط منه هذا الخبر ، حتى عدت راجعاً على الأثر ؛ فقال عنترة : وأين كان هذا العاجز ونحن فى بلاد اليمن ؟ ! إنه لو غزانا فيها ما تركته يتسم روح الحياة ، أتستطيع يا شيبوب أن تسرع بنا إليه ، قبل أن يشب بينه وبين قومنا قتال ؟ !

فقال شيبوب : نعم ؛ سيروا خلفى وستجدون أنفسكم بعد قليل عندهم .

وزاجرة بن ضمرة فارس معدود ، معروف بصيد السباع ليأكل لحمها ويشرب دماءها ، وأمه سارحة من بنى نمر ، وبعد قتل أخيه عمرو ،

منعته أن يغشى معركة ، أو ينشب خصومة تستدعى قتالا ، خوفاً عليه أن يلحق بأخيه وكانت تقول : لا تعرض نفسك للأخطار مدة حياتى ، حتى لا أفجع فيك ، فإذا مت فافعل بعد موتى ما تشاء ، وكانت دائمة التفكير فيه ، والاهتمام به ، فى يقظتها ونومها ، وكثيراً ما كانت تراه فى المنام على غير ما تبغى ، فتقص عليه ما رأت .

ومن ذلك أنها رأته قد دخل غابة واسعة ، أخذ منها سبعين أسدة ، فتبعه سبع أسود ، وهجم عليه فأكل لحمه وشرب دمه ، فاشتد خوفها عليه ، واستعر فى صدرها التفكير فيه ، وما انتهى عام هذه الرؤيا حتى ماتت ؛ فكان موتها فتحاً لباب القتال عنده ، فما لبث أن أعد جيشه هذا ، وسار به خلف بنى عبس ، لينتقم منهم ، ويثأر لأخيه عمرو ، وانضم إليه جماعة خرجوا للعيش والكسب ، فلما كان زاجرة بن ضمرة ومن انضم إليهم على بعد يومين من بنى عبس ، أدركهم شيبوب وجماعته ، فقال شيبوب : لقد لحقتم بأعدائكم ، وهؤلاء خيلهم ترعى ، فدبروا أمركم ، وانظروا ماذا تفعلون؟

فقال عنترة : ليس لنا إلا الهجوم .

فقال شيبوب : وإن عددهم لألفان .

فقال عنترة : ولو كانوا عدد النجوم .

فقال شيبوب : فى مثل هذه الحالة ينبغى أن نستخدم الحيلة ، ونجعل لنا من المكر بالأعداء قوة .

فقال عنترة : وما دبرت من المكر لهم يا شيبوب ؟

فقال شيبوب : تقيم أنت معى هنا مختبئين ، ويسير عروة ومقرى الوحوش إلى جيش العدو ، وينتظما ن فى سلكه كأنهما من رجاله ، وإذا سئلتما عن حالكما أجبتما أنكما من زوايا اليمن ، وقد بلغكما نزوح بنى عبس عن دياركم ، وما منكم إلا له عندهم ثأر ، وقد أفزعتكم فرسانهم ، فلما سمعتم أن زاجرة بن ضمرة نفر إليهم لينكل بهم ذهب عنكم فزعكم وجئتم لقتالهم ، ثم يتقدم أحدكم إلى زاجرة بن ضمرة ، ويقطع برمحه أحشاءه وتعملون على الفور فيهم سيوفكم صائحين: يا آل عبس . . . يا آل عدنان ، فإذا ما سمعنا ذلك خرجنا من مخبئنا إليكم مسرعين ، وصاح فيهم عنترة صيحته قائلاً : قد جاءكم عنترة بن شداد ، وجنوده البواسل من آل قراد ، تتطاير المنايا من سيوفهم ، وتسيل الأرواح على أسنة رماحهم ؛ وإذ ذاك يحسب الأعداء أن جيوش بنى عبس هاجمة عليهم ، فيختلط الأمر فى عيونهم ، ويفرغ الفزع فى صدورهم ، ويشيع قتل زاجرة فيهم ، فلا يجدون لهم من أنفسهم وليًّا ولا نصيراً ، فيولون هاربين مخلفين وراءهم ما يملكون من أموال .

فقال عنترة : نعم ما رأيت ولا عدمنا مكرك ومحالك ، وكان منهم ما أشار به شيبوب عليهم ، وانتهت المعركة بفوز بنى عبس ، وكسبهم أموال الأعداء وخيولهم ، وخسر الأعداء زاجرة قائدهم وكثيراً من فرسانهم ، ثم

فروا هاربين . وساق عنترة وصحبه الأموال وساروا حتى أشرفوا على بنى عبس قبيل مغيب الشمس .

فلما أحس بنو عبس قدومهم من خلفهم ، حسبوهم عدوًّا مغيراً عليهم ، فالتفتوا لصده ، ووقفوا للقائه ، وكان فى مقدمتهم عمارة الوهاب ، فقال عروة لعنترة : هذا عمارة يتيه على جواده لأنه من يوم قتله لدريد ابن الصمة وهو يتعاظم ويفتخر ، وإنى أريد أن أظهر ضعفه وعجزه بقتل جواده ، فإذا ما رأيت أهله قد غضبوا أظهرت لهم نفسى وقلت : إنى كنت مازحاً فرحاً بوصولنا إليكم .

فقال عنترة : إنك بهذا ستحرك رياح الفتنة بعد سكونها ، وقد توقع بنى عبس فى خطأ لهم بعض العذر فيه ، فهم الآن فى مخافة وحذر ، وهم أقرب إلى سوء الظن من أى اعتبار آخر ، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، واترك الشك واعتصم باليقين .

فقال عروة : الأمر لا يعدو قتل جواده ليظهر عجزه ، ثم أكشف اللثام عن وجهى فى ابتسامة وضاءة ، مبدياً استعدادى لترضيته بما يشاء من المال فدية لجواده .

فقال عنترة : ذلك رأيى ، فافعل أنت ما ترى ؛ وأصر عروة على تنفيذ رأيه ، فركب جواده وهجم على عمارة قائلا : أيها اللئام العجزة ، لقد فعلتم بأرض اليمن ما فعلتم من كل إثم وخطيئة ، وها نحن أولاء قبائل

اليمن قد جئناكم لنجعل من جسومكم طعاماً لطيور السماء ؛ ورمى جواده
بنبلة أردته قتيلا ، فوقع عمارة على الأرض طريحاً ، ورأى ذلك إخوته ،
فهبوا لنجدته ، وقتل من فعل به هذه الفعلة ، وتحرك قيس وجنوده نحوهم
وعمرو بن هند وجنده من ورائهم ، فقال عنترة : ذلك ما كنت أخشاه
وأتوقعه ، ثم نهض هو ومقرى الوحوش يصدون بنى عبس ويذودون عن
عروة ، صائحين فيهم : هذا أخوكم عروة بن الورد ، لم يكن فيما فعل إلا
مانحاً مع عمارة أخيه ؛ وكان عمارة هذا قد رأى قومة إخوته وقومة بنى عبس
من أجله ، فاتخذ من هذا خصومة كيدية لحاجة فى نفسه فى عنترة ومن
معه تتجلى فى غضب بنى عبس عليهم ، ونبذهم وراء ظهورهم ، فقال :
إن عروة لم يكن يريد إلا قتلى ولكنه أخطأ المرمى ، لأنه لم يكن قد حان
أجلى ، ولم ينفع لإخماد الفتنة شفاعة قيس بن زهير ، فقال عمرو بن هند :
أين هيبة الملك يا قيس ؟ ! وأين مكانتك عند قومك ؟ ! وكأنك لم تكن
ملكاً فيهم ، ولم يدينوا لك بالطاعة ؟ !

فقال قيس : إن بين هاتين الطائفتين من الحفيظة والعناد ما يعجز
الزمن عن محوه ، ويخيل إلىّ أن صاحب هذه الفعلة الجديدة عنترة ،
فانتهز الربيع هذا التصريح وقال : إن لم تنصفنا أيها الملك هذه المرة فإنا
راحلون من ديارك ، وكان هذا فراق بيننا وبينك .

٩

ثار قيس ، واحتدم غيظه من عنترة وعروة فقال لعنترة : لقد كان
ما بيننا وبين العرب ما بين الأخ وأخيه ، والولد وأبيه ، فأفسدت المحبة ،
وقطعت حبل المودة ، وجعلتنا متنافرين متدابرين ، يتربص بعضنا ببعض
كل دائرة ، ولولا أخو الملك النعمان ، ما أبقى أهل اليمن منا على إنسان ،
ونحن كما تعلم نازلون على بنى عامر ، وما دمت فينا معتزاً بشجاعتك
وسيفك فلن يطيب لنا معهم مقام ، وأرى أن تعتزلنا ، وتطلب لك منزلا
بعيداً عنا ، وتأخذ معك ما تشاء من الأموال ، ومن تختار صحبته من الأهل
والإخوان ، ولولا مالك عندنا من سابق الخدمة وطول العشرة ، لجعلتك
حبيس الأصفاد ، حتى تموت مغيظاً مقهوراً .

فقال عنترة : لو بعثت لى بما قلت عبداً من عبيدك لسمعت وأطعت
فلن أنسى لك ولأبيك عظيم فضلكم وما زلت مديناً لكم بالوجود الحى
الذائع ، والذكر الطيب الجميل ، وسأصدع بأمرك فى التو والساعة .
لتستريح أنت وبنو زياد وعمارة ببعدى عنكم ، وأمر عنترة العبيد
بالانفصال ، واعتزال بنى عبس وبنى زياد ، فتخلف مع عنترة نحو
أربعمائة وخمسين فارساً ، منهم بنو قراد ، وعروة وقومه ، وأبو مسيكة ومن
تبعه ، وكان لعنترة فى بنى عبس رجا ، يقدرونه حق قدره ، فآثروا أن

يكونوا معه ، وكانوا فى الفروسية ومعارك القتال يشار إليهم بالبنان ، فأقفر ربع بنى عبس بعد هذا من كل صنديد عنيد ، وإن كان بنو عبس فى جملتهم أطول القبائل باعاً فى حومات الوغى ، وقال عمرو بن هند لقيس بن زهير : أتهون عليك نفسك وعزة ماكك ، من أجل عبد أسود ؟ !

فقال قيس : لقد كنا فى إكرامه منفذين لوصية والدى زهير ، وقد دأبنا على إكرامه والعطف عليه ، حتى سد تكبره منافذ الرحمة فى قلوبنا ، وقد طردناه غير مأسوف عليه ، وإن ذاع أمر طرده بين العرب ، تخطفوه من كل جانب ، وأتوه بالمذلة والعنت ، فإما قتلوه ، وإما لجأ إلينا وليس فى صدره حبة من عُجْب ، أو ذرة من كبر ، وحينئذ لا يكون مثار فتنة ، ولا مبعث خصومة . واستمر بهم السير حتى كانوا على مقربة من ديار بنى عامر ، فقال لهم عمرو بن هند : يحسن أن نمكث هنا حتى أرسل إلى بنى عامر رسولا ، يخبرهم بقدومنا ، وعزمكم الإقامة فى ديارهم ، ويسألهم عما وصل إليهم فى هذا الأمر من أخى النعمان .

وجد الرسول أن النعمان بعث إليهم أنه أمر بنزول بنى عبس فى دياركم ، وما عليكم إلا التنفيذ ، وإلا حل عليكم غضبى .

نزل بنو عبس هذه الديار ، وقام عمرو بن هند يجدد بين بعض القبائل وبعض عهود الإخلاص والمودة ، ثم ودعوه إلى بلاده بما يليق به من الحفاوة والاحترام .

وذات يوم كان بنو عامر يتحدثون فى شئون بنى عبس ، فقال الأحوص بن جعفر : بلغنى أن بنى عبس وهم عائدون من اليمن قتلوا شيخ العرب دريد بن الصمة ، وأخاه عبد الله ، وقاتلهم من أجل هذا سبيع بن الحارث يوماً كاملا ثم نجا بنفسه ، فقال غشم بن مالك : لئن كان هذا قد حصل فلن يترك سبيع من بنى عبس أحدا يحيا .

فقال عامر بن الطفيل : سأرسل عبيدى يبحثون عن عنترة ومكانه لأنتقم منه ، إذ كان قد أسرنى وأنا صغير .

فقال غشم : لم يمض على نزول بنى عبس ديارنا إلا زمن وجيز ، فاصبر أنت حتى يتبين لنا ما يفعله بهم سبيع بن الحارث .

فقال عامر : بيدك الحق ، فإن سبيع بن الحارث إن جاءهم لم يبق على أحد منهم ، وخاصة أنهم قد طردوا العبد الأسود عنترة .

* * *

قابل عنترة طرد قيس إياه بالحلم والرضا ، وانتظر هو ومن معه فى مكانهم حتى يفارقهم بنو عبس تاركين لهم ؛ ولما ارتحلوا فكر فى ماضيه ، وما قدمه من خير لأهله وذويه ، وما بنى لبنى عبس من مجد يسامى الشمس ، وما لقيه بعد ذلك منهم من نكران الجميل ، فثار عجبه .

والتفت إلى شيبوب فقال : أرأيت كفران النعمة ؟ ! إن الإنسان لظلوم كفار ! ألا تعرف لنا مكاناً لا يطرقه إنسان ، ولا يقرب من منزل لإنسان ؟ !

فقال شيبوب : أعرف مكاناً منقطعاً عن الدنيا ، ولكننى أخشى فيه عادية الليالى والأيام .

فقال عنترة : هيا بنا إليه ، وإن كان غاصًّا بالجن ، فإن عنترة لا يخشى أحدا ، ولا يحزنه إلا أن يرى مظهراً من مظاهر نسيان الفضل وكفران النعمة .

فقال شيبوب : على يميننا ثنية بنى غيلم ، ومن تحتها أرض فسيحة ، ذات مياه وزروع ، وغزلان وطيور ؛ فأمر عنترة أن يكون السير إليها ، والمقام فيها ؛ وساروا يتحدثون فى مختلف الشئون ، حتى كانوا بثنية بنى غيلم ، فنزلوا وضربوا خيامهم وقبابهم ، وأطلقوا بهائمهم ترعى ، وعولوا على الاعتزال التام .

* * *

عز على مقرى الوحوش أن يكون مصير عنترة من قيس وقومه هذا المصير ، الذى كله إنكار للجميل ، وإنكار لفارس وفّى رفع رءوسهم ، وبوأهم من العرب على اختلاف قبائلهم مكاناً عليًّا ، فبث لعروة دخيلة نفسه ، واستنكاره موقف قيس ومن تبعه ، وقال : لقد عزمت أن أرسل من عبيدى من يعرف منازل بنى عبس ، لأجرد عليهم من ينهب أموالهم ، ويجرح كبرياءهم ، ويحك أنوفهم فى الرغام ، وإن قتلت فى سبيل ذلك أعظم رأس فيهم .

فقال عروة : ذلك ما يدور بخلدى ، وسأكون لك خير عون ونصير ، على ألا يعلم بتدبيرنا هذا عنترة ، فقد بلغ من حلمه على قومه مبلغاً لا يحتمله أحد إلا عنترة منهم .

وجاء عبد مقرى الوحوش الذى سيّره لمعرفة منازل بنى عبس ، فقال : لقد نزلوا فى جذع الطواف من ديار بنى عامر ، ولكن هناك ما هو أدهى وأمر ، فقال : وما ذاك ؟! قال العبد : بينما أنا سائر قابلنى عبد من بنى عامر ، فسألنى : من أنت ؟ ! وما جاء بك هنا ؟ ! فقلت : أنا عبد من بنى هوازن ، أرسلنى سيدى سبيع بن الحارث خلف بنى عبس ، لأنه يريد أن يتبعهم بجنده ، ليأخذ بثأر دريد بن الصمة ، وأخيه عبد الله ، وقد عرفت أن جماعة منهم مع عنترة ، فأردت أن أعرف بقيتهم ، وأين هم نازلون ؟ ولولا أنك عبد مثلى ما كشفت لك عن دخيلة نفسى ، فقال العبد : إذن أسهل لك أمرك ، وأكفيك تعب البحث عن بقيتهم ؛ أما قيس ومن تبعه فهم نازلون بجذع الطواف ، من أرض بنى عامر ، فأخبر سيدك بهذا ، وأبلغه أن بنى عامر ما أنزلوهم أرضهم إلا نزولا على أمر النعمان ، وعلى شرط ألا يحموهم من عرب الحجاز ، فليحضر بجنده ، ويفعل بهم ما يشاء ، فذلك ما نبغيه ، ولو قطع أجسامهم ، ومزقهم شر ممزق ؛ وأما عنترة ومن معه ، فأخبرنى أين ينزلون حتى أعلم قومى بنى عامر بذلك ، لأن عامر بن الطفيل سيدهم أرسلنى فى ذلك ، حتى يعبىء جنده

ويغزوهم فى منازلهم ، ويقتل عبدهم الأسود عنترة ؛ فقلت له : إنهم فى ثنية بنى غيلم ، فخذوا حذركم ، ودبروا أمركم ، فهذا كل ما يحيط بكم وينتظركم ، فنهض مقرى الوحوش إلى عنترة وأخبره بكل ما جاء به عبده ، فقال : فليحضر إلينا عامر بن الطفيل ، وأمثال عامر بن الطفيل ، فسأسقيهم كئوس الذل والهوان أشكالا وألواناً .

فقال عروة : من الحكمة أن نجعل من فرساننا حراساً يخبروننا بقدوم العدو ، حتى لا يأخذنا على غرة .

فقال شيبوب : اطمئنوا فسأبعد عن منازلنا هذه فى البرية ، وأقيم هناك ، حتى إذا ما بان لى العدو قادماً ، أسرعت فى لمح البصر إليكم ، فأخذتم أهبتكم للقائه والفتك به ، واستقر رأيهم على ذلك .

أما عامر بن الطفيل فقد جاءه عبده وأخبره أن عنترة ومن معه نازلون فى ثنية بنى غيلم ، فبدا فرحه فى أسارير وجهه ، وقال لغشم بن مالك : إنى ذاهب بجندى للقضاء على عنترة ، فى ثنية بنى غيلم .

فقال له غشم : ليس من الرأى أن تسرع إلى ذلك ، ولكن انتظر حتى يتعرض لهم غيرك ، لنرى ما يفعل النعمان بمن يؤذيهم ، أو يغزوهم .

فقال عامر : لقد أصررت على ما أردت ، وإن كانت سيوف النعمان مشهورة فى صفوفهم . وجهز جنده وخرج بهم إلى ثنية بنى غيلم ، فلما ظهروا لشيبوب وعرفهم فر إلى أخيه وصحبه ، وأخبرهم أن عامرا قادم

إليهم فى أثره ، فقال عنترة : لتجعلوا العيال على رأس هذا الجبل ولتتوزعوا ثلاث طوائف ، فصدعوا فى الحال بما أمر ، وكان على رأس الطائفة الأولى مقرى الوحوش ، وعلى رأس الثانية شداد وعروة ، وكانت الثالثة لعنترة ، وتركوا الخيام خالية ؛ واختفوا فى الصحراء وراء التلال ؛ ووصاهم عنترة ألا يقتلوا أحداً إلا مكرهين ، وألا يضعوا الأسنة فى رماحها إلا مرغمين ، وأن يحرصوا على أسرهم ما أمكنهم ذلك ، حتى يمن عليهم عنترة بعفوه ، لقاء إكرامهم بنى عبس ، وذلك ما كان . وانجلت المعركة عن أسر عامر ، وهزيمة جنده هزيمة منكرة .

ثم نادى فيهم عنترة : لقد آويتم قومنا فى دياركم ، وما كان لكم فى نفوسنا لقاء هذا إلا جميل الشكر وطيب الثناء ، وقد ارتجلتم قتالنا وغزوتمونا فى منازلنا ، وكنا منكم أرحم مدافعين ، فنزعنا أسنة رماحنا ، حتى لا نقتل أحداً ، إلا على الرغم منا ، وقد لمستم ذلك بأيديكم ، لأننا لا نحمل لكم عداء ولا بغضاً ، وتعزيزاً لهذا جعلنا أسراكم طلقاء ، فاذهبوا إلى دياركم آمنين جزاء ما قدمتم من فضل على بنى عبس قومى ، إذ وسعتموهم بكرمكم وأرضكم ومراعيكم .

فقال عامر بن الطفيل : إن ما فعلته يا عنترة شهامة ونخوة ، ورجولة ومروءة ؛ فقد جهل قومك وحلمت ، وسفهوا وغفرت ، وعقوا وبررت ؛ ولى الآن رجاء عندك ، ذلك أن تنازلنى على مشهد من العرب ، والحكم بعد ذلك لمن غلب .

فقال عنترة : طلبت هيناً فابرز . واستمر العراك مدة غير طويلة ، وكان مصيره قهر عامر ، وصفح عنترة عنه .

فقال عامر : إن من حقك الآن أن تقبل ما أعرضه عليك ، ذلك أن تنزل فى أرضى أنت وأتباعك ، على أن تكون ملكاً لك ، ونحن فى حوزتك ندين لك بالطاعة ، ونكون خير جند عند الشدة .

فقال عنترة : إن ذلك يجعلنى على مقربة من بنى عبس ، وربما كان ذلك مثار فتنة أو حرب بينى وبينهم ، وإبقاء عليهم أرى أن أكون بعيداً عنهم .

فقال عامر : إن بيننا وبينهم مسيرة يوم كامل ، وليس هناك أمر يحملنا على الاتصال بهم ، فأنت والحال هذه لا تزال بعيداً عنهم ، وفى معزل منهم ، ثم إن الأرض التى تنزل فيها لم يمتن بها أحد عليك ؛ لأنك ملكتها بسيفك ويمينك ، إذ غلبتنى فى المبارزة . وحبذ هذا الرأى أبوه شداد، وجماعة عنترة ، فنزل على رأيهم ، وأكرم عامرا والأسرى من قومه، ثم عرض عليه أن يأخذ ما ملكه من أموالهم ، فلم يقبل عامر ، وقال : هى وجميع ما أملك حلال لك ، وأنت صاحب الأمر والنهى فى جميع أموالى ، وقد اخترتك أخاً ، لك علىّ الطاعة والإخلاص والوفاء . وركب جميعهم وساروا وقد فرح عامر بذلك فرحاً عظيما .

١٠

بلغ بنى عامر أن حاميتهم عامراً أسره عنترة ، فشملهم حزن عظيم ، وقد فزعت كبشة أم عامر ، وخشيت أن يصيبه هوان أو سوء فى نفسه ، فذهبت إلى ابن أختها غشم بن مالك ، وبكت بين يديه ، شاكية له أسر عامر خائفة أن تمتد يد عنترة إليه بسوء فقال : اطمئنى ، فلن يجرؤ هذا الأسود على أن يمد يده إلى سادات العرب ، وسأبعث إليه الآن رسولا يأمره بإطلاق سراح ابنك عامر ، فإن أجاب وإلا فقد وقعت الواقعة على بنى عبس أجمعين ، وسأخبر النعمان أن ابنك غزا بلاد اليمن ، فوقع فى يد ابن شداد أسيراً. وإن لم يطلق سراحه فسيكون هذا مثار فتنة وحرب بيننا وبين بنى عبس ؛ وسأرسل أيضاً إلى قيس بذلك ، حتى يأمر عبده بإرجاع ابنك إلى أهله فى عزة وكرامة . وجعل يكشف عنها حزنها وفزعها ، حتى قامت من بين يديه مطمئنة على ابنها .

لم تطاوع غشما نفسه أن يبعث إلى قيس بن زهير كما أفهم كبشة أم عامر ، فجعل يقدم رجلا ويؤخر أخرى ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع وصل عامر وعنترة ، وسبقهم إلى الأحياء خبر وصولهم ، فخفوا إلى لقائهم فى فرح عظيم . ولما جمعهم مجلس اللقاء قال ابن خالته : يا عامر ، لقد كنا ذاهبين

إليك ، فقد علمنا أن عنترة عبد بنى عبس أسرك ، ولكنا نراك قد عدت سالما وعنترة فى صحبتك .

فقال عامر : يا غشم ، إن كان عنترة فى رأيك عبداً فهو مولاى وسيدى ، لأنه ملكنى مرتين وأعتقنى ، وقد وهبت له جميع ما أملك من أرض ومال ، واتخذته من الدنيا حظى ؛ وجعل يحدثه بما كان ، وبما اتصف به عنترة من كريم الخلال ، ثم قال : ومن كان يحبنى من عبد ومن حر ، فلا يضيق بما سمعتم ذرعاً ، فلن أكون بعد ذلك لعنترة إلا أخاً وفيًّا ، وعبداً مطيعاً . فعجب الحاضرون لما بدا منه من مودة ووفاء ؛ أما غشم بن مالك فقال : ويلك يا عامر ! ! أترضى أن تقول العرب : إن حامية بنى عامر أسره عنترة ، ولم يستطيعوا رده بسيوفهم ، ولكنهم عجزوا فبذلوا فيه أرضهم وأموالهم ؟ ! !

فقال عامر : نعم ، ولقد أسر عنترة من قبلى من هو أعظم منى شأناً ، وأرفع مقاماً ، كما أذل أهل اليمن كبيرهم وصغيرهم ، ومن الخطأ أن يعتز المرء بنسبه وهو أجوف ، إن نسب المرء عظيم فعله ، وكريم أدبه . وما زال عامر يطنب ويذكر ما امتاز به عنترة من كريم السجايا حتى كسبهم ودانوا لعنترة بما دان به عامر ، وتقدم إلى عنترة بعضهم يعرض عليه أمواله ، فقال : إن لسانى لعاجز عن وصف ما شملنى به عامر سيدكم من عطف وكرم ، فقد وجدنى شريداً فآوانى . . . وجعل عنترة يمدحه ويثنى عليه ،

فعجب القوم لما رأوا من خلق كريم ، ولسان مبين ، وكلام عذب يملك الأفئدة ، ويقيد النزعات الشاردة ، وعاش جميعهم فى فرح عظيم .

* * *

وصل إلى علم قيس أن عنترة نزل بأرض بنى عامر فقال لصحبه : إن بنى عامر يعلمون أنا كرهنا عنترة وطردناه ، ولكنهم آنزلوه ديارهم وأكرموا مثواه ، وذلك عمل عدائى لنا لا نقبله ولا نرضاه ، فقال الربيع : إن عنترة مسح وجهه بأقدامهم ونعالهم ليكونوا شفعاء له عندك حتى تعيده إلى كنفك ، فقد رأى الموت بعينى رأسه ، ووجد أن الدنيا بطرده قد أدبرت عنه ، فإذا جاءوك يستشفعونك فقل لهم : لقد أقسمت قسما عظيما ألا أقبل هذا العبد إلا إذا لبس العباءة وقام يرعى الأغنام كما كان ، واستمر على هذه الحال عاماً أو نصف عام ، ثم بعد ذلك أنظر فى أمره ، فقال قيس : ذلك ما كنت قد عزمت عليه .

وفى هذه الآونة جاء إلى غشم والأخوص كتاب دريد بن الصمة يقول : يا بنى عامر ؛ بما لنا عليكم من حق العمومة ، نود أن تخبرونا : أين نزل بنو عبس حتى أغزوهم فى منازلهم ، لأثأر لأخى عبد الله منهم .

فقال الأخوص لحامل الرسالة : الحمد لله على سلامة دريد ، وقد زال ما بنا من غم لخبر قتله الذى كنا قد سمعناه من قبل ونرجو له عمراً ممدوداً وحياة عزيزة ؛ وقل له : أما بنو عبس فقد أنزلناهم فى أرضنا ، نزولا على

إرادة النعمان ، وإن كانت صدورنا ضيقة بذلك ، ولا نود لهم وجوداً ، فلا تزال الدماء بيننا وبينهم قائمة ، فإذا جئتهم بخيلك فستجدنا ذوى أيد مكتوفة، وصدور منشرحة ، تبغى لهم هزيمة منكرة ؛ وربما كان منا بعض العون لك وقت الشدة .

ولما علم عامر بذلك نقله فى الحال إلى عنترة ، وعرض عليه أن يرسل عبداً من عنده إلى قومه يخبرهم بغزو دريد بن الصمة لهم ، حتى يأخذوا عدتهم للدفاع عن أنفسهم ، فقال عنترة : يا عامر ! إن أردت دوام المحبة بينى وبينك فلا تحدثنى فى أمر بنى عبس أبداً .

فقال عامر : ولن أبيع محبتك بمن فى الأرض جميعاً . وعلم فى نفسه أن قلب عنترة قد تغير على قومه بما لقيه منهم من جحود وإساءة ، وذات ليلة أقام عامر بن الطفيل وليمة فاخرة ، حوت ما لذ وطاب من طعام وشراب . ولما انفرط عقد الوليمة وذهب كل من المدعوين إلى مضجعه أسر مقرى الوحوش إلى عنترة أن عامراً احتاج إلى شراب فبعث إلى التاجر فلم يجد عنده ، ولولا أن ابن خالته غشما أحضر له فضلة منه كانت عنده ما أخذ المدعوون حظهم هذا من الشراب ؛ وقد خرج عامر عقب تفرقنا للنوم ليشترى ، فقال عنترة : لو علمنا بخروجه لخرجنا معه ، ولكن لا بد من الخروج الليلة لندركه ، حتى لا نرهقه من أمره عسراً ؛ وبعث عنترة إلى عروة ليخرج معه فى خمسين فارساً ، ووصى أباه شداداً بالأحياء وعبلة

ومسيكة خيراً ، حتى يثوبوا من رحلتهم ؛ وجعلوا يقطعون الفيافى إلى التجار فى طريقهم إلى الشام ، حتى رأوا خياماً منصوبة ، عليها أعلام مرفوعة ، وأمامها جمال باركة ، فعلموا أنها لتجار الشراب ، فعرج عنترة وصحبه عليها واشترى من أصحابها جميع ما معهم وسخا عليهم فى الربح ، فسر التجار وقالوا : يا أبا الفوارس ! لا تتعب نفسك فى طلب الشراب فنحن نحضره إليك فى ديارك ، ولا نبيعه لأحد غيرك . ثم حملوا خيامهم على جمالهم ، ورجعوا إلى الشام لاستحضار شراب آخر ؛ ولما كان عنترة على مقربة من منازله ، بديار عامر قال : يحسن أن أرسل ما اشتريناه إلى أبى شداد ، ثم نذهب فى طلب النوق لنحرها وأكلها فى الولائم التى نقيمها ؛ فقال مقرى الوحوش : افعل ما تشاء فنحن معك ، فأرسل عنترة الشراب إلى أبيه فى صحبة عشرة من الفرسان ، وسار هو ومن معه إلى جبال طيئ وأرض شهلان ، وجعل شيبوب يقصد بهم المنازل العامرة ، فلا يجد فيها أحداً ، حتى أثار هذا دهشة عنترة ، فقال لأخيه : لعلك ضللت المنازل يا شيبوب .

فقال شيبوب : ما ضللت وما نسيت ، ولكن هذه الأماكن التى وردناها كانت عامرة بأهلها قبل رحلتنا إلى بلاد اليمن ، ولا أدرى ما جرى لها حتى أقفرت من أهلها ، وأرى أن تلبثوا هنا حتى أذهب إلى بنى هلال فى ديارهم وأعود إليكم بخبرهم ، دون أن تتعبوا فى السير إليهم ، وإن وجدت ديارهم خالية قفلنا راجعين .

فقال عنترة : وإنا هاهنا قاعدون حتى ترجع إلينا بما تجد . وتركهم شيبوب فى تلك الأرض ، وكانت ممتدة المروج كثيرة الغدران ، ذات وحوش كثيرة ، فشغلوا أنفسهم فيها بالصيد حتى يعود شيبوب ، ولما عاد إليهم شيبوب وقت الأصيل تبسم ضاحكاً وقال : لقد سبقك إلى هذه الديار أخوك ، وعاد منها بما أراد من الأموال .

فقال : ومن أخى ؟

فقال شيبوب : نزلت فى أرض بنى هلال ، فوجدتهم قد اعتصموا برءوس الجبال ، ووجدت الصحراء من حولها مملوءة بأجسام متناثرة ، وأشلاء مبعثرة ، ووحوش عليها جاثمة ، وطيور حائمة ، وحاطة وطائرة ؛ فسألت بعض العبيد عن ذلك فقال : أغار علينا منذ ثلاثة أيام عامر بن الطفيل فى فوارس أشداء فقتل رجالنا ، وسبى حريمنا ، ونهب أموالنا ، وخلفنا على هذه الحال التى ترى . فقلت : وهل اعتاد أن يغير عليكم ، ويفعل بكم مثل ما فعله هذه المرة ؟ ! فقال : نعم ، فقلت : وكيف تقيمون فى أرض لا تأمنون فيها على أنفسكم وأهليكم وأموالكم ؟ ! فقال : كنا إذا سمعنا بخبر غزوه إيانا صعدنا فى الجبال ، وجمعنا فيها الأموال والعيال ، وكنا دائماً مقتفين خبره ، ولكنا فى هذه المرة بلغنا أنه شغل بصحبة عنترة ، فأمنا جانبه ، وأقمنا بالصحراء حتى دهمنا بجنده على غفلة منا ؛ وكان منهم ما رأيت . ثم قال شيبوب لأخيه: وخير لنا الآن أن نعود

أدراجنا إلى الديار ، فابتسم عنترة وقال : نرجع إلى الديار بلا مال ! لا ورب البيت الحرام . وباتوا تلك الليلة يتحدثون فى شجاعة عامر بن الطفيل ، إلى أن قال أحدهم : لم يعرف عامر بالشجاعة إلا بعد أن خلت دياره من فارس قوى عظيم هو عمرو بن ود العامرى .

فقال عنترة : وكيف رحل من دياره وهو على ما تقول من الشجاعة والقوة ؟ !

فقال : وقر فى نفسه أنه أعظم خلق الله ، وأن الناس دونه فى كل شىء ، وغلا فى عظمته وتكبره ، حتى رأى أن وجوده بين الناس يمس كرامته ، فاختار العزلة فى الصحراء معتمداً على سيفه وقوته.

فقال عنترة : وهل تسمع له الآن خبراً ؟

فقال : سمعت بعض زوار البيت الحرام يقولون : إنا رأيناه هناك ، وإن الكهان قالوا عنه : إنه فارس دهره ، ووحيد عصره ، إن سلم من فارس من آل طالب ، فقال مقرى الوحوش : وحق من خلق المشارق والمغارب إنه لن يستطيع أن يقف أمام عنترة بن شداد .

ولما أقبل الصباح ركبوا خيولهم وساروا فى الصحراء يبتغون المال ، حتى أشرفوا على مرج مخصب الجنبات ، ممرع النبات ، يعبق الجو برائحة زهوره الذكية ، ويحيط به أربعة جبال عاليات . فأمر عنترة أن يبيتوا فيه حتى الصباح ، وبينما هم يتأهبون للرحيل رأوا غباراً ثائراً ، مقبلا عليهم من

عنترة يبارز عمرو بن ود العامرى

صدر الصحراء ، فتأهب عنترة ومن معه للحرب والكفاح ، فقال مقرى الوحوش : لمن هذا الغبار يا ترى ؟ فقال عنترة : وأى شىء يعنينا إن كان لهذه القبيلة أو لتلك ؟ ! فإن كان لأصحابنا فبشرى لهم ، وإن كان لأعدائنا فويل لهم ولو كانوا ملء الأرض عدداً ، ثم التفت إلى أخيه شيبوب وقال : ما وقوفك يا بن السوداء ؟ ! اذهب إليهم وائتنا على عجل بخبرهم ، فأسرع شيبوب إليهم فرأى جيشاً جراراً من كل فارس قل أن تجود الدنيا بمثله شدة وقوة وشجاعة وبسالة ؛ فسأل شيبوب بعضهم قائلا : حيتكم اللات ، وجعل لكم الهبل الأعظم النصر المبين ، أخبرونا من أنتم ؟ ولمن تنتسبون من العرب ؟ فما فرغ من سؤاله حتى كشف أحدهم اللثام عن وجهه وقال : ثكلتك أمك ! ! مالك تسأل عن فرسان الزمان ؟ ! ارجع إلى من أرسلك ، واجعله يأتى على عجل صاغراً مطيعاً لفارس البيت المحرم عمرو بن ود العامرى ، قبل أن يحل بكم غضبه ، ويسقى من دمائكم سيفه . فلم يطق شيبوب صبراً على هذا الوعيد ، ورمى هذا الفارس بسهم فى صدره أرداه قتيلا ، ثم أسلم ساقيه إلى الريح ، وعدوا خلفه ليدركوه ويقتلوه ، فما استطاعوا أن يشقوا له غباراً ، فاستعجبوا منه وقالوا : إن هذا عفريت من عفاريت الصحراء .

ولما وصل شيبوب إلى أخيه أخبره بما رأى وفعل ، فلم يلبث غير ساعة حتى عاد إلى الجيش ومن خلفه فارس كأنه الجبل ثباتاً وقوة ، فنادى فيهم

قائلا : أيها الخبثاء اللئام ؛ اتركوا أموالكم ، وانجوا بأنفسكم ، وإلا فقد حل الموت بكم ؛ أنا عنترة بن شداد ، الذى ذاع صيته فى كل واد ، أرونى أبطالكم أخرجوهم إلىّ لأقتلهم . فلما سمع عمرو ذلك قال لجماعته : تنحوا عن القتال ، واتركوا لى هذا الفارس ، أصب عليه الوبال ، فهو الفارس الذى عرفه القريب والبعيد ، وليس للحديد إلا الحديد ؛ ثم قال : مهلا يا أبا الفوارس ! لا يغرنك ما لديك من بأس ، فيجعل منك بغياً على الناس ، فللبغى عقبى كالعلقم مرارة ، والصاب غضاضة ، يلقى عندها الباغى مصرعه .

فابتسم عنترة وقال : أيها الفارس ! أى بغى رأيت منى ؟ ! وأنا المعروف بإنصاف الناس من نفسى ، فدونك والمبارزة ، فبها تكون المفاضلة ، والتفت عنترة إلى صحبه قائلا : خلوا عنكم هذا الفارس ، فليس له — فيما يزعم — غيرى منافس ، ثم أرخى كل منهما العنان لجواده ، واحتدم بينهما العراك ، كل منهما يحاول قتل صاحبه ، ثم لا يستطيعه ، ودامت المبارزة جميع اليوم ، حتى أطبق عليهما الظلام ، وكان عمرو قد أحس التعب ، وناله من عنترة العجب ، فطلب إليه أن يؤجل المبارزة حتى الصباح ، فقال عنترة : ومن فلق الإصباح ، لا يقفها إلا صعود الأرواح ، واستمرا فى التحام وانفصال ، حتى انتهى الليل وظهر الصباح ، فقال عمرو : يا عنترة ؛ أيكفيك بعد هذا أنى معترف لك بالفروسية وليس بينى

وبينك عداء أو بغضة ، ولا مزاحمة على أحب الناس إليك عبلة ؟ وإنى أرغب أن أتخذك لى صديقاً يربطنا رباط الإخوة ، وهذا ميثاق علىّ فخذه منى ، وأرجو أن أحظى منك بمثله ، حتى يكون فخراً لى فى حياتى .

فقال عنترة : ذلك ما كنت أوده وأبغيه ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا ، وجعل منا خير إخوة ، ورب أخ لك لم تلده أمك ، ثم تعانقا وسلم كل منهما على صاحبه ، ورجع عنترة بجنوده .

* * *

سار عنترة بجنوده على آثار شيبوب أخيه الذى يرتاد لهم الأماكن للحصول على ما يبتغون من مال ، وبينما شيبوب سائر إذ طلع عليه أعرابى من بين التلال والروابى ، على ناقة أضناها التعب ، فتأمله شيبوب وعرف أنه من بنى عامر ، ويدعى الحطيئة الشاعر ، فسأله شيبوب : أين كنت ؟ ! وإلى أين أنت سائر يا حطيئة ؟ ! فلما ناداه باسمه أطال فيه النظر فعرف أنه شيبوب فقال : هنئى يا شيبوب بالنجاة من الموت ، أأنت وحدك ، أم أخوك عنترة معك ؟ ! فقال شيبوب : وما تريد من أخى عنترة ؟ فقال الحطيئة : أخبره ماحل بأخيه عامر بن الطفيل ، فقد وقع أسيراً فى قبضة زيد الخيل ، وإن لم يدركه على الفور أنزل به الثبور والويل ، ثم بان له عنترة ، فأسرع إليه وقال : أدرك أخاك عامراً على عجل .

فاغتم عنترة من أجل عامر ، ومن شكوى هذا الشاعر ، وقال :

اقصص عليّ ما حصل ، فقال : كان عامر قد خرج فى طلب الشراب ، فلما رجع لم يجد عنترة ، فسأل عنه والده فقال : إنه خرج إلى طريق الشام ليشترى شيئاً من تجاره ، فجمع عامر من رجاله وصحبه عشرين ، وأبان لهم فضل عنترة ونبله ، وأنه إنما خرج فى طلب شيء لنا ، ليخفف عنا عبء الحصول عليه . فأشار بعضهم أن يخرجوا مع عامر لإحضار نوق يستقبلون بها عنترة ، فقال : وذلك ما جمعتكم من أجله ، وخرج معهم إلى بنى هلال ، فأخذ من أموالهم ، فاغتر عامر بنصره هذا وفوزه ، وأرسل ما غنمه إلى دياره ، مع عشرة من فرسانه ، وطمع أن يغزو قوماً آخرين بعشرة فرسان باقين معه ، فسار بهم حتى وصل بنى أسد فى وقت السحر ، فرأى أن يقيم بغدير هناك بقية الليل ، حتى يطلع النهار ، وتنتشر النوق والجمال فى المراعى ، فيأخذ منها حاجته ويولى الأدبار .

١١

ولما ذهب عامر إلى الغدير وجد عنده عشر فتيات قصدنه للراحة والنزهة والناس نيام ، وكن من بنى أسد ، ومعهن هند بنت ذارع ، زوج زيد الخيل ، فأعجب عامراً حسن هند واستهواه ، فقال لصحبه : كل واحد منكم يجعل فتاة من هؤلاء ردفاً له على ظهر جواده ، وسأجعل

هذه — وأشار إلى هند — ردفاً لى ، ثم ننطلق بهن فى جوف هذه الليلة إلى ديارنا ، ناجين بأنفسنا ، ففعلوا ، وجدوا فى سيرهم حتى ضحوة النهار ، فقال عامر لهند التى لم يفارقها البكاء من وقت أن أسرت : أنت ذات بعل أم ذات خدر ؟ فقالت : ذات بعل ، وزوجى زيد الخيل ، وهو حامية بنى نبهان ، وفارس لا يرجحه فارس فى الميزان .

فقال عامر : ستمكثين أسيرة ، حتى يدفع زوجك فديتك ، وإلا كنت من نصيبى . ثم استأنفوا المسير إلى ديارهم ، وبينما هم سائرون إذ رأوا من خلفهم جيشاً تتسابق فى العَدْو جياده .

وكان هذا الجيش فرقة مقدارها مائتا فارس ، وهى إحدى فرق أربع من جيش عظيم لزيد الخيل ، ولكل فرقة رئيس ذهب بها فى ناحية ، للبحث عن هند زوج زيد ، ولكنه لم يكن على رأس الفرقة التى أدركت عامراً .

ولما أحس عامر تلك الفرقة تجرى من خلفه ، أمر من معه أن يأخذوا الجوارى ، ويسرعوا بهن إلى ديارهم ، ورجع هو وحده ، فالتقى بتلك الفرقة ، وجعل سيفه يقضم الفرسان قضما ، حتى قتل منهم عشرة ، ولا يزال كما هو فى شدته وقسوته وطلبه إياهم ، فلما رأوا منه ذلك ظنوه عفريتاً فى صورة إنسان ، فولوا على أعقابهم يبحثون عن بقية الفرق ، ليبثوا إليهم ما وجدوا ، وأما عامر فقد ظن أنهم بعد تلك الهزيمة لا يرجعون إليه ، فأسرع إلى فرسانه حتى أدركهم وحدثهم بما فعل ، وما هى إلا برهة قصيرة ،

حتى رأوا غباراً ثائراً من خلفهم ، ينبىء عن جيش كثر عدده ، فلما قرب وتبينه عامر عرف أنه لزيد الخيل الذى يتصدره ، وقد لبس لأمة حربه ، وشهر سيفه ، فأرسل عامر الفتيات مع فارسين إلى دياره ، ورجع هو وفرسانه الثمانية ، وقال : هذا موقف خلود الذكر ، وذيوع الصيت .

ولما سمع زيد الخيل ينشد شعراً حماسياً أجابه على الفور : أخطأ وهمك ، وجئت اليوم إلى حتفك ، يازيد الخيل .

فقال زيد الخيل : ومن تكون ؟ ! !

فقال عامر : حامية بنى عامر .

فتبسم زيد وقال : كان عليك أن تغض الطرف أمامى ، وخير لك أن تطلق سراح هند زوجى ، قبل أن يصيبك الهلاك . ورمى زيد بنظره إلى الأمام البعيد ، فلمح هندا زوجته تشير بيديها إليه أن أقبل على عجل ، وكأنها بهذه الإشارة ، قد أشعلت فى جسمه ناراً حامية ، فلم يلبث أن تقدم لمبارزة عامر ، موقناً أنه لا محالة قاتله ، وبعد جولات قاسية بين الفارسين ، تمكن زيد من أسر عامر ، ثم حمل على بقية فرسانه ، فأسر منهم ستة وفك رقاب الفتيات ، ورجع بهن إلى دياره ، وكان الحطيئة الشاعر من جملة الأسرى ، فقال لزيد : لقد أصبحنا بالأسر ، فى قبضة يمينك ، فماذا تريد منا ؟ وإلى أين أنت سائر بنا ؟

فقال زيد : إلى ديارى لأعذبكم وأتخذكم سخرياً ، فإن أبيتم خدمتنا ضربت أعناقكم .

فقال الحطيئة : ما عدوت يا زيد بهذا سبيل العدل والحق ، فقد بدأناك بعدواننا ، وأسرنا فتياتكم ظلماً وجوراً ، ولكن الرحمة أولى بها كرام النفوس ، وأنا رجل فقير ، لم تطأ قدماى معركة أبداً ، حملتنى الحاجة ، وكثرة الأولاد ، إلى الخروج للكسب والرزق ، فدفعنى حظى إلى تلك الفئة الباغية ، حتى وقعت فيما أنا فيه الآن ، وليس لى إلا عفوك ورحمتك بأولادى الصغار ، الذين يرتقبون الآن عودتى إليهم .

فأركبه زيد ناقة ، وفك عنه القيود وقال له : بلغ قومك أن يعجلوا بفدية أصحابك وإلا عجلت فناءهم ، ولو أنك لم تأتنى محارباً لأسبغت عليك نعمة الغنى واليسار ، ثم مال إلى عامر وقال له : ماذا تريد أن أبلغه قومك ؟ فقال : بلغ عنترة ما نحن فيه ، ولا تذع شيئاً منه ، حتى لا يشمت بى غشم بن مالك . ثم عجل الحطيئة بالمسير فالتقى بعنترة وأخبره بما كان .

قال عنترة للحطيئة بعد أن سمع قصته : عد بنا إلى بنى نبهان لأريك ما أفعله بزيد وصحبه ، فذهل الحطيئة وعجب ثم قال : كيف تطمع فى لقاء زيد وجنده ، وأنت فى أربعين فارساً ، لن أعود معك على قلة صحبك فإن أردت فى رأيى نصراً مبيناً ، فانتظر فى هذا المكان حتى أذهب إلى بنى عامر ، وأجعلهم ينفرون لمعونتك من كل مكان ، وإن كان عامر قد وصانى ألا أخبر أحداً بما هو فيه إلا عنترة .

فقال عنترة : ما هذا الذى تقول ؟ ستعود معنا رغم أنفك ، ولو

اضطررت إلى أن أوثق بالحبال كتفك ، حتى ترى ما أنا فاعل بزيد وجيشه ، وإن ملأ الأرض كثرة .

فقال الحطيئة ليت هذا النهار الأسود ما طلع علينا ، كيف تستمسك بصحبة رجل جبان مثلى ، إذا احتدم العراك كان قلبه هواء ، إنى أرى أن تسيروا فى طريقكم ، وكأننى لم ألتق بكم ، وما رأيتمونى وما رأيتكم ، فابتسم عنترة وقال : لابد من عودتك ، وسأمنحك من أموال بنى نبهان ما يكفل لك ولأولادك الغنى مدى الحياة .

فقال الحطيئة: إن عودتى الآن إلى أولادى سالماً فقيراً أهنأ لى من أموال بنى نبهان ومثلها معها فقال، عنترة : لابد مما ليس منه بد ، وأمر شيبوبا أن يمنحه جواداً يركبه ، فركب الشاعر وهو يقول : كتب علينا القتل هذا العام ، وقد وكلتكم يا أولادى إلى من خلقكم .

* * *

سرح زيد الحطيئة ، وسار فى جنده ،حتى كان فى دياره ، فوجد قومه يصلون من بنى سليم حرباً طاحنة ، فأودع من معه من الأسرى عند بعض رجاله ، وغشى تلك المعركة الحامية ، ورآه قومه فجأة يخب فيها ويضع ، فثبت منهم الجنان ، واستقام السيف والسنان ، ولم يعتدل ميزان النهار حتى وقعت ببنى سليم الواقعة ، وتصدع بنيانهم ، وأخرجوا من الديار واسترد ما كانوا غنموه من أموال وأسرى ،ولما أقبل المساء جلس زيد ورجال عشيرته ،وكبار قومه ،وحدثهم بمافعل فى غيبته ،ففرحوا بماأسر من عامر وفرسانه .

١٢

وكان مرداس بن جابر زعيما لبنى سليم ، وقد ثبت أقدامهم ووعدهم أن يسترد ما كانوا غنموه من أعدائهم ، وأن يقتل زيد الخيل ، ويشرد قومه فى الفيافى والقفار ؛ ولما جاء الصبح وعلم زيد أن بنى سليم لا تزال مصرة على قتالهم ، حمل هو ورجاله عليهم ، وجعل يطلب مرداسا حتى لقيه وقتله، ورجع بنو سليم بهزيمة كبرى ، ورجع بنو نبهان غانمين ظافرين ؛ وكان المهلهل والد زيد الخيل سيد القبيلة ففرح بنصر ابنه، وأقام وليمة كبرى حضرها الأكبر والأصغر، وبات جميعهم فى فرح عظيم .

* * *

انتبه زيد الخيل من نومه فى الصباح على هرج الحى ومرجه وصياحه وبكائه ، ولما سأل عن ذلك قيل له : إن أسرى بنى عامر قد هربوا وإن جميع من كان يحرسهم من العبيد والفرسان قد قتلوا . فنادى فى قومه بالنفير حتى يلحق الأعداء قبل أن يمعنوا بعداً فى الصحراء ؛ ولما طلب جواده ، وجده قد سرق ، وأن العبد القائم بخدمته مقتول ، فاغتم زيد لتلك الحال وركب جواداً آخر ، وخرج هو وأبوه فى خمسة آلاف فارس وانساحوا فى الصحراء وداروا يميناً وشمالاً ، وخلفاً وقداماً ، عسى أن يجدوا للعدو أثراً .

وجاء زيد الخيل ؛ إذا ذاك فرقة من فرق جيشه ، فقالوا : لقد مررنا على وادى الجماجم ، فرأينا رجالنا مقتولين ، وخيولنا منهوبة مسروقة ، وليس لنا فى الوادى عبد ولا عقال بعير ، وكان عدد الخيول ألفين نصفها لزيد والنصف الآخر لأعيان القبيلة ، فثقل الهم على قلب ذلك زيد الخيل وأدرك المهلهل أبوه ذلك فقال : لا تتعب نفسك يا ولدى ببحث لا نهاية له ، وأرى أن نعود إلى ديارنا ، ونرسل العبيد والعيون ، لتكشف لنا هذا الأمر ، ثم نأخذ له عدته ونعالج أمورنا على بصيرة ، ويخيل لى أن بنى عامر انتهزوا فرصة لهونا ليلا ، ثم أغاروا علينا وفعلوا ما فعلوا ونحن غارقون فى غفلة من اللهو والفرح والاطمئنان . فقال زيد الخيل : ذلك ما أراه ، وهذا جزاء من تهاون فى أمره ؛ فقال أبوه : وليس لهذا الأمر إلا العودة والاستعداد ؛ لأننا لا نستطيع أن نلحقهم قبل أن يصلوا إلى ديارهم ولو ركبنا طريقهم ، لأنك تعلم مبلغ خيولنا من العدو والسرعة ، وليس معهم ناقة ولا جمل يعوقان سرعتهم ، ولأن الليل قد أقبل علينا وإذا سرنا فيه لا نتبين أثراً نقتفيه ، فيكون سيرنا على غير هدى . ولأننا إن ذهبنا إلى بنى عامر على غير استعداد هائل مكناهم منا ، ونصرناهم علينا ، فهم خلق كثير ، وهم فى المعارك ذوو أثر كبير ؛ ولا تنس غشم بن مالك وأمثاله من كل قرين ونظير ، له فى مواقف الحرب شأن خطير . ولأنهم ثلاث قبائل على ماء واحد ، ويجاورهم بنو عبس الذين أنزلوهم فى أرضهم ؛ فالذهاب إليهم

دون تدبير ، تعرض للفشل والتدمير . فعلينا أن نرجع إلى الديار ، ونحكم الرأى والمشورة .

فلم ير زيد مفراً من النزول على رأى أبيه ، وإن كان قد ملكه الهم والغم من جميع نواحيه .

* * *

سار عنترة والشاعر معه حتى أشرفوا على ديار بنى نبهان ، فكمنوا فى مكان غير بعيد ، وبعث أخاه شيبوبا يرتاد الديار ويعرف مداخلها ومن أى مكان يغزونها ، ويقف على ما فعله أهلها بعامر بن الطفيل ومن معه من الأسرى ؛ فوجد شيبوب الأحياء تموج من الفرح والسرور ، فقال فى نفسه : هذه فرصة سانحة لتخليص عامر ومن معه دون أن أكلف أخى عنترة تعباً أو مشقة ، فالقوم غارقون فى لهوهم ، مطمئنون فى ديارهم اطمئنان الآمنين . ورأى أن يجلس عند غدير من الماء حتى تهجع الأحياء ويغطوا فى نومهم العميق .

جلس شيبوب بجانب الغدير ، وجعل يحك رأسه ، ويدعك عينيه وإذا بجماعة من جوارى الأحياء يردن الغدير فى طلب الماء ، فقال لهن : أعندكن جارية تزف ، أم حفلة مولود عزيز ، أم هذه عادة بنى نبهان ، تحب الفرح والشراب ؟

فقالت إحداهن : كيف لا نحب الأفراح وكيف لا نكثر من إقامتها

وفينا فارس ، كبت الأعداء ، ونشر الأمن والسلام فى ربوع الديار ! ! !
ذلك هو زيد الخيل بن المهلهل النبهانى ، الذى أقيمت الأفراح الليلة من
أجله لزواجه بهند بنت ذارع ، ومجيئه من الحرب فائزاً ، ومعه الأسرى
وفيهم عامر بن الطفيل ؛ وما دمت عابر سبيل فلا تقنع بالجلوس على
الغدير ، ولكن ادخل فى الحى وانعم بكرم فارسنا الأمير الذى شمل كل
غنى وفقير ، وخذ من الزاد ما يعينك فى سفرك .

فقال شيبوب : وأين بيوت زيد الخيل حتى تكون مقصدى ، فى
قضاء حاجتى ، فأشارت إليها وعرفته إياها ؛ ثم ملأن قربهن وذهبن إلى
بيوتهن ؛ وبقى شيبوب فى مكانه ، حتى عم الظلام ، ومضى من الليل
أكثره ، ونام الناس نوماً ثقيلا ؛ ثم دخل بين الخيام والمضارب يتوكأ على
عصاه ، ويتثاقل فى خطاه ، حتى كان أمام الخيمة التى فيها عامر
وجماعته ، فسمعه يقول : لو أتيح لنا من يفك أغلالنا ، لاستطعنا الفرار
إلى ديارنا الليلة ؛ فدخل عليه شيبوب وقال : لقد جئت إليك من أجل
ذلك . وحل قيودهم ، وذبح حراسهم ، وقال للأسرى : اذهبوا من فوركم
إلى المرج الذى فى آخر الغدران ، عند كثيب الغزلان ، فإن عنترة قد جاء
يطلبكم ، وقد انتظرنى هناك حتى أكشف له الخبر ، وأسرعوا فى عدوكم
وسأذهب إلى إحضار جواد يركبه عامر ثم ألحق بكم فى الطريق .

فقال عامر : إن لزيد جواداً لا نظير له يسمى الهطال ؛ فذهب

شيبوب إلى مضرب الجواد ، فوجده هناك ووجد العبد المكلف بخدمته
وحراسته غارقاً فى نومه فذبحه ، وأخذ منه مفتاح قيود الهطال وهم أن يفتحها
وإذا بالجواد يصهل لرؤيته غريباً ، فقام زيد الخيل على صهيل الجواد ،
ونادى : يا عبد الخير ؟ لماذا يصهل الجواد ؟ فأجابه شيبوب :
يا مولاى لا أدرى ! ! وربما كان طالباً ماء . ولم ينكر زيد على شيبوب
صوته لأن رأسه ثقيل بالنوم فقال : أخرجه إلى أذيال الخيام وقدم له الماء .

فقال شيبوب مقلداً عبد الخير : يامولاى سأسير به فى الفضاء لأنك لم
تركبه من مدة ، وربما كان هذا سبب صهيله وغضبه .

فقال زيد الخيل : سر به الليلة حيث تشاء .

فقال : سأقضى الليلة جميعها ، حتى ينسى غضبه . ثم دخل زيد
بيته ، أما شيبوب فقد فتح قيود الهطال وركبه ، وطار به فى القفار حتى
وادى الجماجم ، فرآه غاصاً بالخيول العتيقة والعبيد يغطون فى نومهم ،
فقال : وتلك غنيمة ميسرة لعنترة فليأخذها ، وليعد إلى الديار هذه المرة ،
ثم انفلت مسرعاً حتى كان بين يدى أخيه ، فحدثه بما فعل ، ثم حضر
عامر بن الطفيل ومن معه فوجد شيبوباً فعجب منه وقال : كيف حضرت
قبلنا ونحن قد خلفناك وراءنا ، وما منا إلا من ركض وعدا حتى ورمت من
العدو أقدامنا ، فقال : جئتكم على ظهر الجواد الهطال الذى هو لزيد
الخيل بعد أن ذبحت حراسه ، ثم قال : وأرى أن تتبعونى لأدلكم على وادى

الجماجم ، وهناك تذبحون العبيد وتسوقون أمامكم جميع ما فى الوادى من خيل ، وتجعلونها غنيمتكم هذه المرة ، أما إذا أردتم حرباً الآن فلن تنالوا منها إلا أن تنجوا بأنفسكم ، دون أن تحصلوا على مال أو أسير ، وبعد أن تغنموا هذه الخيول ، وتستعدوا للقاء زيد الخيل ، فلا ضير عليكم أن تشعلوها حرباً لا تبقى من بنى نبهان باقية ، جزاء أسرهم عامر بن الطفيل ومن كان معه ، وعزز رأى شيبوب فى ذلك الشاعر وغيره ، فوافق عنترة ، وتم لهم ذبح العبيد ، والاستيلاء على الخيل ، ورجعوا بها غانمين ، وسلك بهم شيبوب سبلا غير مطروقة ، حتى لا يلحقهم لاحق ، أو يهتدى إليهم أحد ، إلى أن كانوا فى الديار .

١٣

وسأل عنترة عبلة عن حالها مدة غيبته ، فقالت : فى سلامة وعافية ، لم تكن كبشة أم عامر تفارقنى ، أما بنو عبس فقد دالت دولتهم ، وتفرق شملهم ، على يد دريد بن الصمة ، وجعلوا يرسلون الرسل فى طلبك ثلاثة أيام متواليات ، وما أجبتهم إلا بأنى لا أعرف أين أنت ، ولا متى تحضر إلىّ ! ! ولقد ألح قيس بن زهير فى طلبك ، والسؤال عنك ،

ولا يسمع منى جواباً إلا ما ذكرت ، من أنى لا أعرف مكانك ، ولا أدرى متى تعود ! ! وقد بلغنى أنهم فى ضنك شديد ، وأن دريداً أسر عمارة الوهاب ، وأعلن صلبه عقب فراغه من بنى عبس ؛ فقال عنترة : لقد جحدوا فضلى ، وأنكروا معروفى ، ورأوا فى عمارة وبنى زياد شرفاً كبيراً ، وفى عنترة وصحبته منقصة وعاراً ، فطردونى كما تطرد العبيد والسوقة ، فكيف أعود إليهم وهم لا يزالون فى جهل بمعرفة الخبيث من الطيب ، فعندهم عمارة والربيع وبنو زياد يعتزون بكثرتهم ، ويتخذونهم سلاحاً لهم وقوة ، أما أنا فاعتزازى بنفسى أحب إلىّ من الارتماء فى أحضان من لا يقدرنى قدرى ، وإن كان فى قوة عاد وثمود .

* * *

سمع بنو عبس أن دريداً سلم من الطعنة التى وجهها له عمارة ، وأيقن أنه قتله بها ، وجعل يفتخر بها على أقرانه ؛ كما سمعوا أنه جمع القبائل لغزو بنى عبس ، والثأر منهم لأخيه عبد الله ، فما كادوا يصدقون ذلك . وأرسل قيس الجواسيس لكشف هذه الحال ، فرجعوا بعد البحث معلنين صدق ما جاءهم من نبأ دريد ، وجمعه القبائل للقتال والأخذ بثأر أخيه ، وأنه حاضر فى خمسة عشر ألف فارس ، سوى من تبعهم ممن اعتادوا النهب والسلب إذا ما اشتبك الفريقان المتقاتلان ، وشغل كل بالدفاع عن نفسه ، ومحاولة التغلب على خصمه .

أصاب قيساً هم عظيم وقال : يا بنى عمى ، خمسة عشر ألف فارس يتجمعون لقتالنا ، فيهم أمثال دريد بن الصمة ، وسبيع بن الحارث ؛ فإن لم نعجل بتدبير أمرنا ، والأخذ بكل وسيلة تنجينا ، غلبنا على أمرنا ، وذهبت ريحنا ، ومحيت ظلالنا ، فقال أحد الجواسيس : أما سبيع ابن الحارث فإنه لا يستطيع الحضور مع دريد ، إلا بعد أن يشفى من جروح أصابته فى قتاله أهل اليمن .

فقال قيس : لا شفاه الله ، ولا أرانا وجهه .

وقال الربيع : يحسن أن نعرف موقف بنى عامر منا فى تلك الحرب ؛ أهم يساعدوننا أو ينفضون أيديهم منا ؟

فقال قيس : لا ينبغى أن نتصل ببنى عامر فى مثل تلك الحال ، فأنا أعلم أنهم أشد الناس بغضاً لنا ، ويودون لو تقطع أعناقنا ، وتنهب أموالنا ، وتسبى نساؤنا ، وأرى أن نأخذ حذرنا منهم ، قبل أن يدهمنا دريد بجنده .

* * *

أما دريد فقد شفى من طعنة عمارة ، وسار فى خمسة عشر ألف فارس من أشداء جنده ، ومن جاء من القبائل لمعونته . وما زال يقطع الفجاج ، حتى كان بينه وبين بنى عامر مسير ثلاثة أيام ، فقال لخالد أخيه : لتكن رئيس الجند ، على أن تترفق بهم فى المسير ، حتى أسبقكم أنا إلى بنى

عامر ، وألتقى بسيدهم الأخوص بن جعفر ، وأسأله عن موقفه من بنى عبس ، لنكون على بصيرة من أمرنا ، قبل أن نوقد نار الحرب بينهم وبيننا .

واختار دريد عشرة فرسان من بنى عمومته ، وساروا حتى دنوا من الديار ، فشعر بهم الربيع بن زياد — وكان الربيع هذا قد أمره قيس أن يخرج كل ليلة فى مائة فارس ، ويبعد بهم فى الصحراء ، ليعرف مجىء دريد ومن معه ، فيخبر بذلك قومه — ولما شعر بهم الربيع ذهب إليهم فوقف أمام دريد وسأله : من أنتم ؟ وما سار بكم فى هذا الظلام ؟

فقال دريد : يا أخا العرب ، نحن من اليمن ، وجئنا برسالة للأخوص ابن جعفر ، فمن تكونون أنتم ؟

فقال الربيع :— وكان لا يفارقه الخبث والدهاء ، وظن أنه دريد — نحن من بنى عامر ، والمقدم فينا الأخوص بن جعفر ، وقد أرغمه النعمان على أن ينزل بنى عبس أرضه ، وهم أعداؤه ، والقاتلون لخالد بن جعفر ، وذلك ما جعله فى غيظ عظيم من بنى عبس ، ولما علم بغزو دريد بن الصمة لهم فرح فرحاً عظيماً ، وجعل طراداً أخاه على مائة فارس ، وكلفهم أن يبعدوا فى الصحراء ، حتى لا يشعر بهم بنو عبس ، وأن يلتقوا بشيخ العرب دريد بن الصمة ، ويستحثوه على المسير ، حتى يفاجئوا بنى عبس ، وينقضوا عليهم ، وها نحن أولاء نصدع بأمره ، تحت قيادة طراد أخيه .

ففرح دريد لهذا وقال : أبشروا يا أخا العرب ، فأنا دريد بن الصمة ، وأثرى جيش لا يقف فى وجهه إنس ولا جان ، وقد سبقته مستخبراً ، وما دمت قد قربت من الديار ، فأرى أن أزور ابن عمى الأخوص بن جعفر ، فعد إليه وأخبره بما سمعت ، فعاد الربيع إلى جماعته ، وأفهمهم سراً أن يمكنوه من بلوغ مأربه ، بالطاعة وتنفيذ أمره ، ثم نادى فيهم جهراً : يا بنى عمى ، هذا دريد بن الصمة سيد العرب ، أتاكم ناصراً ومعيناً ، ومعه عساكر لا تدع من بنى عبس صغيراً ولا كبيراً ، ثم اندس بين فرسانه ، وأسر إليهم : هذا دريد ومعه عشرة فرسان ، جاء إلى بنى عامر ، ليدبروا أمر هلاكنا ، وقد جرى بينى وبينه من الحديث كيت وكيت وأرى أن تعلنوا سروركم بلقائه ، وأن يترجل منكم عشرون فارساً يحيطون من حوله ، معلنين الحفاوة به ، ثم يهجمون عليه فيأسرونه ، ونحن نحمل على فرسانه حملة نقتلهم بها ، أو نأخذهم أسرى فقالوا : ليس لهذا الأمر غير ما ذكرت .

أخذ الربيع رجاله إلى دريد فأحدقوا به ، وصاح الربيع فيهم : يا بنى عبس ؛ هلموا إلى غايتكم فنزلوا على دريد نزول الصاعقة ، وقتلوا جواده ، وقيدوه فى الأغلال أسيراً ؛ بينما نزل بقيتهم على فرسان دريد نزول القضاء ، فقتلوا منهم ثلاثة ، وأسروا سبعة ، وساقوهم وخيلهم إلى قيس وقومه بجذع الطواف ، من أرض بنى عامر ، فى ظلام الليل ،

وهناك التقى الربيع بقيس وأخبره بما فعل ، ففرح فرحاً عظيماً ، وشكر له جزيل صنعه ، وعظيم كيده ، وذاع هذا الخبر فى الأحياء ، فماجوا فرحاً وسروراً ، ثم قال الربيع : إن لم يأمر دريد بكف جنده عن قتالنا خضدنا شوكتهم ، وشتتنا شملهم بقتل دريد بن الصمة ، وكان هذا سامعاً ما يقوله الربيع ، فقال دريد : يا قيس ! دعوا هذا القول ، وإن أردتم قتلى فافعلوا ، فقد شبعت من الدنيا ، وليس لى غرض فى الحياة ، غير أنى أعرفك أن خلفى خمسة عشر ألفاً تحت إمرة أخى خالد ، وفيهم صهرى سبيع بن الحارث ، ولقيط بن زرارة ، فى بنى مشاجع ، وبعد غد على الأكثر يكونون على أبواب دياركم ، وكلهم موتورون منكم ، وأرى أن تقتلونى وتقتلوا من معى قبل أن يأتيكم جندى ، فيبيدوكم ولا يتركوا لكم باقية .

فوقع قيس فى حيرة عظيمة ، إذ علم من قول دريد هذا أنه من من الجبابرة ، الذين لا يخشون موتاً ، ولا يحزنون على حياة ، فقال : لا نقتلك الآن ، ولكن إذا جاءنا جندك ، ولم نظهر عليهم كان لنا معك شأن آخر ، ثم وكل به فى الأسر حراساً أشداء ، وقسم قيس جنده فريقين ، وأمرهم أن يخرجوا للقاء جند دريد فى الصحراء ، حتى يكون ذلك مدعاة لاعتقاد قوة فيهم ؛ واستعداد لمواجهتهم ، وقال : إذا التقيتم بهم فليهجم الفريقان عليهم من ناحيتين ، أحدهما يصيح : يا لعبس ! !

يا لعدنان ! ! والآخر يصيح : يا بنى عامر ! هيا دافعوا عن ضيوفكم الذين آويتموهم فى أرضكم ، وأخذ النعمان عليكم ميثاقكم أن تحموهم ، وتدفعوا الأذى عنهم . وذلك ليعلم جند الأعداء أن بنى عامر تحارب معنا ، وأنها حبست دريداً أسيراً عندها ، فتضعف قواهم المعنوية . فقال الربيع : نعم ما أشرت به ، وأبشرك بنصر مبين على الأعداء ، حتى يفهم العرب أن عنترة كان بنا ، وأننا لم نكن بعنترة .

وخرج بنو عبس إلى الصحراء ، وما زالوا يجدون فى السير ، حتى يلتقوا بالأعداء بعيداً عن الديار ، ولما لم يقفوا لهم على خبر ، ولم يظهر لهم فى الصحراء أثر ، قال قيس : تقدمنا بطائفة ياربيع ، حتى تلتقى بهم ونحن من خلفك ، ليقولوا إن بنى عبس لولا أنهم فى قوة يطمئنون إليها ، ما خرجوا يطلبوننا ؛ وحينئذ يقع الرعب منا فى قلوبهم ، فيقاتلوننا بقلوب واجفة وهمم خائرة .

وفى وقت الضحى رأوا غباراً قادماً ، فقال عبس : هذه جيوش الأعداء مقبلة ، وإن صدق ظنى فإن تأخرهم عن الحضور إلينا فى الموعد المضروب لهم كان عن حادث أصابهم ، وعاقهم عن مواصلة سيرهم ، ثم كلف فارساً أن يركب جواده ، ويتجسس عليهم ، ليأتيه بأخبارهم .

لم يغب الفارس إلا قليلا ثم عاد إلى قيس ، فسأله : ما عندك ؟ !

فقال : ذهبت إلى أطراف الغبار لأعثر على من أسأله ، وإذا برجل مجروح ، خارج فى لهف إلى الصحراء ، ينشق نسيمها الصافى ، فقلت له : يا أخا العرب ، من هؤلاء الطوائف ؟ وإلى أين يسيرون ؟ فقال : سلنى عن نفسى أولا ، فقلت : وما خطبك أخا العرب ؟ ! فقال : لقد جرحت كما ترى ، وفقدت رمحى وسيفى ، وقتل فرسى ، وأصبحت فى هذه الحال اليائسة ؛ وأما هذه الطوائف التى تراها ، فقد خرجوا يقتتلون على حطام الدنيا ، فقلت : وكيف ذلك ؟ فقال :

نحن من بنى كريم بن صارم ، خرجنا فى قيادة رئيسنا الكليم ، وأغرنا على بنى غراب ، فسقنا نوقهم ودوابهم ، وأخذنا أموالهم ، ثم رجعنا نطلب ديارنا ، فالتقينا بهذا الجيش الجرار ، ولما رأى ما معنا من الأموال سال لعابه عليها ، وطمع فيها ، وابتدرنا بالقتال ليغنمها : ولم نطق أن نفرط فى أموال غنمناها بحد السيف ، وهأنتذا ترى القتال مستعراً ، ولا ندرى ما يكون ! ! !

فقال قيس : تلك حال هى لنا قوة ، وهى لأعدائنا ضعف وخيبة. ولننتظر مكاننا حتى يأتينا الجيش ، فنهجم عليه من ناحيتين حسب تدبيرنا .

فقال الربيع : وإذا ظهرنا عليهم فإن الفارس الكليم وجماعته ينضمون إلى صفوفنا ، ويكونون لنا قوة لا يستهان بها ؛ وكان هذا الفارس مشهوراً

بشجاعته وقوته ، حتى كان العرب يسمونه : بحر الهلاك وقد أنزل بجيش دريد العنت ، وقتل منه هو وجماعته عدداً من الفرسان ينيف على المائتين .

ولما عرف قيس أن الحرب لا تزال بينهم قائمة ، سار بجيوشه إلى الأعداء ، وهجم عليهم من ثلاث نواح ، كل ناحية تنادى فرقتها نداء يخالف نداء الأخرى ؛ فهذه تنادى : يا لعبس ! ! يا لعدنان ! ! وتلك تنادى : يا لغطفان ! ! وأخرى تصيح : يا لعامر ! ! لقد قتلنا دريداً ، وجئنا ندافع عن بنى عبس ، امتثالا لأمر الملك النعمان . وكان نشاط بنى عبس المعهود ، وهمة الكليم وقومه المعروفة ، سبباً فى أن تشتت جيش دريد ، وانكشفت الغمة عن الكليم وهمت طوائف دريد أن تلوذ بالفرار .

ولكن خالداً أخا دريد جعل ينادى فيهم : اثبتوا ، واصبروا ، ولا تجزعوا ، فإن دريداً أخى لا يزال حيًّا ، وسترونه عن قريب بينكم ، وهاجماً معكم على أعدائكم ، ولا تنسوا أن الهرب سبة لكم ، فاحملوا على أعدائكم حمل الأبطال ، فإن النصر معقود لواؤه عليكم ، وكان هذا النداء سبباً فى عودة الجيش إلى استئناف القتال ، ووصى قومه أن يؤثروا أسر بنى عبس ويكفوا عن قتلهم ، حتى يجعلهم فداء لأخيه دريد . ودارت رحى الحرب ، فأسر من بنى عبس خمسون فارساً ، وقد أحضرهم خالد بين يديه ، وسألهم عن دريد أخيه ، فقال عقلاؤهم : ظفرنا به وهو ذاهب إلى بنى عامر فأسرناه ، ثم جئنا نلقاكم طمعاً فى التغلب عليكم ، وكان ما رأيت .

فقال خالد : ومن جعلتموه على أموالكم ونسائكم ؟ فقالوا : لم يخرج للقائكم إلا نفر قليل ، والكثرة من فرساننا خلفناهم فى الديار .

فقال خالد : كيف ذلك وقد انقسمتم قسمين : أحدهما لعنترة الذى غضب عليكم وفارقكم ، وثانيهما لقيس بن زهير ؟ ! ! فقال : أما من حدثك عن غضب عنترة فقد صدق ، ولكنا أرضيناه بعد غضبه ، وهو الآن فى الديار ، ومعه ثلة من صناديد الأبطال من أمثال عروة ومقرى الوحوش والهطال ، وعبيدة أبو الموت ، ومعهم جماعة من بنى غطفان ، وفرقة من اليمن تبعتنا عند الرحيل .

ولما سمع خالد هذا ألف من فوره جيشاً عدته خمسة آلاف فارس ، وأمر عليهم سابق بن ثابت ، وأمره أن يذهب بهم إلى خيام بنى عبس ومنازلهم ، ليخلص أخاه دريداً من قبضة أيديهم ، ثم يكون هو وجيشه فى طاعته ، ينفذون ما يشير به عليهم .

١٤

اجتمع الكليم ليلا بقيس وحاشيته ، فشكر لهم جميل صنيعهم ، إذ كانوا عوناً له على أعدائه وقال : ولن يضيع معروفكم هذا عندى ، وسأظل معكم مقاتلا فى صفوفكم حتى نبيد أعداءكم أو يولوا هاربين .

فقال قيس : إنما فضل ثباتنا وظهورنا على أعدائنا راجع لكم ؛

ولولا أن ساقكم القدر إلينا لكان شأن الأعداء معنا غير هذا الشأن ، وأما معونتنا لك فما كانت إلا اتفاقاً وصدفة ، وأرى أن تأخذ أصحابك وجيشك إلى دياركم .

فقال الكليم : لن أفارقكم حتى تفرغوا من قتال هؤلاء الآثمين .

فقال قيس : حسبنا منك ما بذلت من كفاح ، ودعنا نقاتل من ابتلى بنا ، وابتلينا به .

فقال الكليم : لن أبرح هذه الأرض حتى أمزق هذا الجمع ، أو أشرب من الكأس التى تشربون .

فشكر له قيس كريم بره ووفائه ، وقال بعض أصحابه لبعض : لقد عوضنا الله خيراً من عنترة فارساً أثبت منه جناناً ، وأطول فى القتال باعاً ، ومعه ألف فارس ممن نعتمد عليهم . وكان بين الفارس وقيس عهد وذمة .

وأخذوا فى تلك الليلة ينظرون فى أمر التغلب على أعدائهم ، فقال قيس : أخشى أن يرسل خالد كتائب من جيشه هذا إلى عيالنا فى بيوتهم فيأسروهم ، ثم يهجموا علينا من خلفنا ، وخالد وبقية جيشه من أمامنا ، ولقيط بن زرارة الذى استنجد به يمده بجنده تنكيلا بنا ؛ ولهذا أرى من المحتوم علينا أن نترك هذا المكان إلى بيوتنا ، ونقاتل الأعداء أمامها ، وبذلك نطمئن على عيالنا ونسائنا ، ونأمن أن يغير علينا أحد من ورائنا .

فقال الربيع : لقد أحكمت الرأى ، وإذا صدق ظنك فلا بد أن يكونوا قد ساروا إلى بيوتنا فى هذا الظلام ، وعلينا أن نسير الآن ، حتى ندرك ما عسى أن يكون من الأمر قبل استفحال خطره .

فقال الكليم : ذلك قول سديد ، فارحلوا أنتم الآن ، أما أنا فسألحقكم على الأثر ، حتى أقضى على من يتبعكم من أعدائكم .

رحل بنو عبس فى ظلام الليل ، ولم يشعر بهم أحد ؛ ولما جاء الصبح لم يجد خالد وجيشه بنى عبس أمامهم ، فدهش وتحير وقال : لا بد أن يكونوا قد ذهبوا إلى منازلهم ، لحماية أموالهم وعيالهم ، فربما عرفوا أمر هذا الجيش الذى بعثناه ، ولا بد من السير فى أثرهم الآن ، حتى نشغلهم بالقتال عن دريد والتضييق عليه .

* * *

وصل سابق بن ثابت خيام بنى عبس ، فوجدها محاطة بنحو مائتى فارس شداد ، فحمل عليهم بجنده ، ونادى فيهم : أن اقصدوا بيت الملك قيس ؛ فلعل دريداً سيدكم فيه ، فإذا أنجيتموه من أسره أصبح الأمر فى أيديكم ، وظهرتم على بنى عبس بسيوفكم ، وبينما الحرب فى أشدها إذ أقبل قيس بن زهير فى جيشه ، فخاض به المعارك ، ونزلوا فى جيش العدو قتلا وتشريداً ، وساعدهم فى ذلك الكليم سيد بنى كريم ، فوجد الأعداء أنهم لا محالة هالكون ، فطلبوا النجاة بأنفسهم بالفرار

إلى الصحراء مسرعين ، ودارت عليهم دائرة السوء بما كانوا يظلمون ، وتشتتوا فى القفار هاربين .

وجاءهم حينئذ لقيط بن زرارة فى خمسة آلاف فارس ، فأخبروه ما حل بهم ، وأن دريداً أسير عند أعدائهم ، وأن خالداً أخاه حاضر فى جنده بعد حين ، وكان مع لقيط عشرة من إخوته الأبطال ، فحملوا على بنى عبس حملة قاسية ، ولقيهم هؤلاء بقلوب ثابتة ، وجاهدوا فى الدفاع عن أنفسهم حق الجهاد . وبينما كانت الحرب مستعرة الأوار وصل خالد وجيشه ، وانقضوا على بنى عبس انقضاض الصاعقة ، وهم لا يملون القتال حتى جاء الليل ، فأغمدت السيوف حتى الصباح ، وبات بنو عبس فى سكرة من التعب يتشاورون ، وينظرون ماذا يفعلون ، وقد أشفق الملك قيس على الكليم وقومه ، فعرض عليه أن يأخذ ما يشاء من أموالهم ويرحل إلى دياره ، لقاء ما بذل لهم من معونة ؛ فأبى الكليم أن يفارقهم ، حتى ينتصروا على أعدائهم ، أو يكون مصيره مثل مصيرهم ؛ وقد أحبه لهذا قيس بن زهير ، وعول على أن يزوجه بنته الجمانة ، بعد أن تنكشف عنه هذه الغمة .

وفى الصباح سال الوادى على بنى عبس فرساناً ، وطلبوهم من كل ناحية ، إذ كانوا عشرين ألفاً ، واستمرت الحرب يومين ، فلما رأى قيس أن الأمر خرج من أيديهم ، وأنهم لا محالة مغلوبون ، أشار على

الربيع ليلا أن يذهبوا إلى دريد فى سجنه ، ويعرضوا عليه فك رقبته ، وإعطاءه ما يشاء من المال ، فدية لأخيه ، وجزاء طعنة عمارة إياه ، على أن يكشف عنهم هذا البلاء ، ويأمر الجنود بالانصراف . وقال : ولا ضير علينا إذا طمع فيما نملك ، فالمال نستطيع جمعه ، ولكن الأرواح إذا ولت فلن تعود .

فقال الربيع : ذلك خير منقذ لنا من هذه الورطة ، فنفذه أنت بحيث أكون بعيداً عن أنظار دريد ، حتى لا يتحرك غيظه منى ، فيأبى مصالحتنا .

أخذ قيس جماعة من عشيرته ، ودخل على دريد فى محبسه وقال : علمت يا سيد بنى جشم أننا قوم ما خضعنا لإنسان ، وأننا على الدوام حاملون لواء النصر والظفر ، وقد قتل منا فى بلاد اليمن فرسان كانوا لنا خير عدة ، ونريد الآن أن نتخذك صديقاً حميما ، ندرأ بك كيد الزمن ، وندفع الصروف والمحن ، فاقترح علينا ما تشاء من المال فدية لأخيك . نحمله على الفور إليك ، وادفع بحلمك عنا هذا العدوان ، فإن الدهر قلب ، ولا يطمئن إليه إلا كل غافل غير مجرب .

أثر هذا القول فى نفس دريد وقال : إن بنى زياد فعلوا بى ما ملأ صدرى منهم غيظاً ، وليس أحب إلى نفسى الآن من مجانبة البغى ، وقبول ما عرضته على ، ولكن لى فيه رأياً ، فإن أنت استجبت له تصالحنا وتآخينا .

فقال قيس : قل ما ترى .

فقال دريد : أما المال الذى تقترحه ، فليس لنا فيه حاجة ، وخير منه عندى أن تطلق جميع من كانوا معى فى الاعتقال دون فدية ، وأن تسلم إلينا الربيع وأخاه عمارة ، وطائفة من بنى زياد ، فأنت تعلم أنهم قتلوا أخى ، وأن الربيع أوقعنى فى حبائل مكره ، وجعلنى أحدوثة السخرية فى ألسنة العرب ، حتى نرد بما نفعله فيهم كرامتنا ، ولست بعازم أن أركب فى معاملتهم متن البغى ، ولكننا سننتصفهم من أنفسنا ، بجعل الحسام بيننا وبينهم حكماً ، والحكم لمن غلب منا ، وإذا أنفت من تسليمهم خشية أن يقول العرب : إنك فرطت فى بنى عمومتك وأهلك ، فنحهم عنك ، ونحن نطلبهم أينما كانوا ، وإن أنكروا عليك هذا لكثرة عددنا وقلة عددهم فسنبارزهم فارساً فارساً ، وذلك رأيى أعرضه عليك ، فإما رضيت وإما أبيت .

فقال قيس : أظنك معى فى أن هذا الرأى يحتاج إلى عرض ومشورة .

فقال دريد : ذلك حق فقم وشاور من تشاء .

وذهب قيس إلى الربيع وأخيه وأخبرهما بما عرضه دريد فقال عمارة : أطلقه وأطلق من كان معه ، وليطلق هو أيضاً الأسرى من رجالنا فى جيشه ، فقال قيس : أخشى ألا تستطيع الوقوف أمامه ، فهو رجل ذو قوة من جنده وأعوانه .

فقال عمارة : أجبه إلى ما طلب ، وستجده بعد ذلك متجرعاً من عمارة كأس الحمام ، وستجد جنده يهيمون فى الصحراء من شدة ما يلقونه منا من النكال ، وما كنت فيكم الأمير عمارة إن لم أجعلهم مثلا وعبرة .

فأخذ قيس على دريد مواثيق الصلح والأمان ، وأطلقه ومن معه فى كرم واحترام، وكان ذلك فى وقت السحر ؛ وما جاء الصبح حتى كان دريد عند قومه ، فحدثهم بما عاهد قيساً عليه ، ففرحوا بنجاته ، وأطلقوا من عندهم من أسرى بنى عبس وزياد وأعطوهم خيلهم وعددهم ؛ فقال خالد لأخيه : لو صبرت يوماً واحداً لخلصناك عنوة وقهراً ، بعد أن نكون قد أبدناهم جميعاً .

فقال دريد : خشيت عاقبة البغى وإباء السلم ، والمبارزة بيننا وبين بنى زياد آتية . وكانت هدنة ، وقف القتال فيها يوماً كاملا .

وجاء غد يوم الهدنة والسلام ، واجتمع سادات العرب ، للإشراف على ما اتفق الفريقان عليه من تحكيم المبارزة ؛ ثم برز الأمير عمارة مختالا يهز عطفيه ، طالباً مبارزة دريد ، وكان راكباً مهرة حمراء ، فجعل يمشى بها أمام القوم منتظراً دريداً ، وما لبث غير قليل حتى برز إليه وقال : ذلك يوم عليك ثقيل .

فلما سمعه عمارة هز رمحه وغمز مهرته ، وسار يتمايل عطفاه ذات

اليمين وذات الشمال ؛ فسبقه إلى المبارزة ذوات بن أسماء من بنى زياد ، قاتل عبد الله أخى دريد ، وقال : ويلك يا دريد ! ! تدعى أنك فارس مناع ، وللمعارك أول ساع ! ! وتفتخر بطول عمرك ، وذلك لا يشرفك ، فإنه لا يطول إلا عمر الجبناء ؛ أنا قاتل أخيك ، وستلحقه اليوم بحسامى .

فعرف دريد بعد هذا الذى سمعه ، أنه هو الذى قتل أخاه ، فحبسه الغيظ منه عن الكلام ، وجرد سيفه من فوره ، وضربه ضربة قده بها نصفين ، ولما رأى عمارة ما وقع لهذا الفارس دارت عيناه فى رأسه ، من الرعب الذى لبسه ، وأكره على المبارزة مخافة الخزى والفضيحة ، وجعل يجول فى الميدان طولا وعرضاً ودريد لا يحيد عنه ولا يزول ، حتى تمكن منه فأسره ، وأسرع بنو جشم فساقوه مقيداً ذليلا ؛ ولما رأى الربيع ما فعل بأخيه حزن حزناً شديداً وقال : وا ذل بنى زياد بعدك يا عمارة ! ! وصاح بنو زياد : يا أسفا عليك يا عمارة ! ! ثم أحاطوا بدريد ، وشرعوا سيوفهم ورماحهم ، فهب فيهم هبة ليث جاعت أشباله ، وقتل منهم سبعة عشر فارساً وأسر خمسة ، وكان النهار قد مضى نصفه .

خجل الربيع أن يقف مكتوف الأيدى ، لا يقدم معونة لبنى زياد الذين أشرفوا على التلف ، فزج بنفسه فى المعركة ، وطلب دريداً يبارزه ، وكانت مبارزة حامية ، امتد أجلها إلى غروب الشمس ، ولم يظفر أحد منهما بصاحبه ، فأرجئت إلى الغد ، وعاد الربيع إلى قيس

مرهق الأعصاب ، منهوك القوى ، فهنأه لسلامته ، وسأله : كيف وجدت دريداً ؟ !

فقال : فارس لا يغلب ، وقد أخطأنا إذ حكمنا المبارزة فينا ، وما كان لنا أن نفك رقبته ، فقد قتل منا كثيراً ، وأسر أخى عمارة ، وفرساناً من بنى زياد ، وأخشى أن يقتلهم جميعهم فى أخيه عبد الله ، فيلحقنا عار لا يمحى .

فقال أسيد بن جذيمة عم الملك قيس : ليس خطؤكم فى إعتاق رقبته ، ولكنه فى طردكم عنترة بن شداد ، وقد رأيتم أن البلاء محدق بكم منذ أبعدتموه عنكم ، واعلم يا ربيع أن القبيلة جميعها فرحانة بأسر عمارة وبنى زياد ، شامتة بكم ، غاضبة عليك وعلى قيس ابن أخى ، إذ أطاعك فيما اقترحته عليه من طرد عنترة .

فقال قيس : يبدو لى أن ما قلته حق ، فلم تقم لنا قائمة منذ فارقنا ، وأرى أن نبعث إليه معتذرين مستصرخين .

فقال أسيد: ليس لكم إلا هذا الرأى ، فإن استجاب لكم كان ذلك تفضلا منه ومكرمة ، وإن أبى فله عذره ، لأنكم جحدتم نعمته وفضله عليكم .

فقال الربيع : وأنا أول من يذهب إليه ، ويقبل يديه ، وأقدم له ما ملكت يداى ، حتى يكشف عنا هذه الكربة الماحقة ، ثم بعث إليه

قيس رسلا يعتذرون إليه ، ويدعونه لإنقاذ أهله وقومه .

أما دريد فقد رجع إلى قومه فرحاً بما نال من نصر على بنى زياد ، وقال له لقيط بن زرارة : لا تنثنى عن مبارزة هؤلاء القوم ، حتى تنال غايتك منهم ، وبعد ذلك سنحمل على بنى عبس حملة عنيفة ، نفيد منها تمزيقهم وكسب أموالهم ، وأسر فرسانهم ونسائهم .

فلما كان الصباح برز دريد فى الميدان ونادى : أين غرمائى من بنى زياد ؟ ! يحضرون لمبارزتى ، تنفيذا لما تعاهدنا عليه ! ! وفى أثناء ذلك كان الربيع يتأهب لمبارزة دريد ، وقيس يمنعه ، خشية أن يغلبه دريد ويقتله ، ويقول : أولى لك أن تنتظر حتى يحضر من أرسلناهم إلى عنترة ، فربما جاء معهم ، وكشف عنا هذا البلاء .

وبينما هما يتحدثان جاءهما الكليم سيد بنى كريم وقال : ما هذا التردد فى مبارزة دريد الذى طغى وتكبر ؟ ! ولولا ما بينكم وبينه من اتفاق لبرزت أنا إليه ، وقصمت ظهره ، وظهر من يشايعه .

فقال قيس : جزيت خيراً ، فقد أوليتنا من عظيم معونتك ما لا طاقة لنا بحمله ، وأرى أن نصبر على هذه البلية ، ولا يبرز إليه الربيع ، فإن أخوف ما أخافه أن يقتله هذا الشيطان المريد .

فقال الكليم : إذا كان الأمر كذلك فدعونى أبرز إليه . ثم نهض ودفع بنفسه إلى الميدان وقال : آن لك يا حسامى أن ترعى الذمام ، وتريق

الدماء ، وتفرى العظام .

فقال دريد : أنت الكليم من بنى كريم ، ولست من بنى زياد ، فهل نقض ما بينى وبين قيس ؟

فقال الكليم : لا تعلل نفسك بما قيل وما يقال ، فإذا كنت فارساً فدونك والميدان . فلم ير دريد مفرًّا من لقائه ، ودامت بينهما مبارزة مضنية قاسية ، حتى مضى نصف النهار ، والناس بين مشفق وحانق على هذا وذاك ، وبين محب لهذا ، وكاره لذاك ، وفى تلك الساعة عادت رسل قيس إلى عنترة ، فأخبروا قيساً أنه غائب ، ولا يعرف أحد أين هو الآن . فاغتم بنو عبس لذلك ، وقالوا : لا أمل لنا الآن إلا فى الكليم سيد بنى كريم ، وعسى الله أن يبدل عسرنا يسرا على يديه .

ولما وجد دريد من الكليم شجاعة نادرة أيس معها أن يتغلب عليا قال له : لقد كان أبوك أحب الناس إلىّ ، وأعز الأصدقاء لدى ، فما دفعك إلى مبارزتى من أجل بنى عبس ؟ ! وما رجوه من خير عندهم ، حتى عرضت نفسك للهلاك من أجلهم ؟ ! فوجد الكليم فرصة لاستخدام مكره ودهائه ، والاعتماد على حيلته ، بدلا من القتال والمبارزة ، وقال : ما دفعنى إلى هذا إلا حاجة فى نفسى ، لا أستطيع أن أبديها .

فقال دريد : لا تخف عنى حاجتك ، وأنا كفيل بتحقيق ما تطلب سواء أكان مالاً أم غيره ، وإن كانت لك رغبة فى بنت من بنات العرب

مكنتك من الزواج منها ، وإن كانت الجمانة بنت قيس ، وخير لك أن تصادقنا ، وتكون منا ، فقد انتقض بمبارزتك لى ما بينى وبين بنى عبس من ميثاق وعهد ، وهذه الجموع الحاشدة التى تراها كفيلة بجعل بنى عبس ترابا .

وجد الكليم فى هذا القول مجالا لتنفيذ حيلته ، فتبسم ضاحكاً وقال : لا بأس أن أبدى لك ما فى نفسى ، فقد وقعت نظرة من نظراتى العابرة ، على الجمانة بنت قيس ، فحبستها عليها فترة ، كانت عقباها هوى ولوعة ، فاتخذت سبيلى للزواج منها ، وجعلتها معونة أبيها فى دفع الضر عنه وعن قومه ، فتقدمت لمبارزتك زاعماً أنى أغلبك ، ولكنى وجدتك فارساً لا ينال ، فأنا الآن أعتذر إليك ، وأعرض عليك خطة أخرى للحصول عليها .

فقال دريد : وما تلك ؟

فقال الكليم : أن أكون أنا ورجالى فى صفوفكم ، ونحمل على بنى عبس حملة واحدة تمكننا منهم ، فتقع الجمانة فى أيدينا ، وأنال حظوتى منها ، على أن يكون ذلك فى غدنا ، فإنى علمت أن قيساً أرسل الأموال فى طلب الفرسان من القبائل العديدة لنصرته ، كما بعث فى طلب حاميتهم عنترة الذى لا يغلبه أحد ، وعما قريب يكون لهم بذلك جيش قد لا تستطيع الوقوف فى وجهه .

فاغتر دريد بهذا القول ورضى به ، وتمكيناً للخديعة فى نفس دريد

قال الكليم : وأحب أن ينقضى هذا النهار وبنو عبس لا يزالون يعتقدون أنى معهم ، ولهذا فإنى أرى أن نقضيه فى مبارزة شكلية ، على أن تعطينى ميثاقاً صادقاً : ألا تنقض ما بيننا من عهد وإيمان .

ولما أعطاه دريد ما أراد من مواثيق وأيمان ، أخذا يجولان فى الميدان ، ويتواثبان ، كل يبغى أن ينال من خصمه ، ولكنه لا يوقع به ، فلما رأى قيس ما يلقاه الكليم من المتاعب قال لقومه : ليس من المروءة أن نترك هذا الفارس يقاسى من أجلنا هذه الأهوال ، وأرى أن نحمل على دريد حملة ينجو بها الكليم من بين يديه ، ولكن فرسان الكليم حفزهم الخوف على فارسهم ، فأسرعوا بالهجوم ، وقابلهم خالد بهجوم مثله ، وعاونه لقيط بن زرارة وفرسانه ، فلم ير قيس مفراً من القتال فى صفوف بنى كريم ، وماجت الأرض بمن عليها من الفرسان المحاربين ، وعلت السيوف الرقاب قاطعة ، وصارت الرماح فى الصدور غادية رائحة ، واستمر القتال على أشده ، حتى أقبل الليل بظلامه ، فوقف القتال ، ونجا الكليم من يد مبارزه وفرح بنو عبس بنجاته ، وإن كانوا قد أرهقوا من هذا القتال عسراً ، وخسروا فيه خسراناً كثيراً .

ولما رجع دريد إلى قومه لام خالداً أن حمل هذه الحملة وقال : ما دفعك إلى القتال وأنا فى غنى عن المعونة والنجدة ؟ ! ! فقد كنت متغلباً على خصمى ، وما كنت بتاركه حتى أكبله بأغلال الأسر ذليلا

مهاناً ، أو أجعل منه لوحوش الفلا لحماً طريا ؟ ! !

فقال لقيط بن زرارة : يا دريد ! دعنا من هذا اللوم الذى لا غناء فيه ، فما حاد خالد بحملته عن الصواب ، ولا بد لنا من استئناف القتال غداً ، حتى نجهز على بنى عبس قبل أن يأتيهم مدد يشد أزرهم ، أو يأتى أسودهم عنترة ، وقد يكون ذلك خيراً لهم وشرًّا علينا .

وفى الصباح زحفوا على بنى عبس ، وسال الميدان بالفرسان سيلا ، ووجد الفناء فيهم طعامه وشرابه ، واستمرت الحال على أشدها ثلاثة أيام ، كانت رسل قيس تغدو وتروح بينه وبين عنترة ولا تأتى بشىء ؛ وفى اليوم الرابع اشتدت على بنى عبس وطأة القتال ، ورأوا هزيمتهم رأى العين .

وكان آخر رسول بعث إلى عنترة قرواش بن هانئ ابن عم الملك قيس فوجده قد عاد من غيبته ، فقال : حرمتنا صحبتك فأدبر عنا الزمان ، ودهمتنا المحن من كل مكان ، وإن لم تدركنا فلن تجد لنا بعد ذلك أثراً ، ثم قص عليه ما عانوه من دريد بن الصمة ، وما يجرى عليهم من البلاء والمحنة ، وقال : لقد ندم بنو عبس وبنو زياد على ما فعلوه بك ، ويرجون منك أن تجيرهم قبل أن تصيبهم دائرة الفناء ، وقد أقروا لك بالسيادة والزعامة ، وجعلوا ما يملكون من الأموال حلاً لك ، وقد ذاب الملك قيس حسرة على فراقك ، إذ فقد الأمل ، وأشفى هو ورجاله على الأجل ، ولنا فى بعد همتك ، وسمو نزعتك ، وكريم سجيتك وعفوك ، ما يجعلك تعود

إلى قومك ، فتكشف عنهم ضرهم .

وكان عنترة يستمع لهذا القول منكساً رأسه ، فنال من قلبه ، وعزت عليه قبيلته ، فهم أن يستجيب له ، ولكنه تذكر طرده وجحود فضله ، فقال : لقد سمعت هذا الحديث من ابنة عمى عبلة ، ولو أنى استسغته لكنت الآن بين يدى قومى أحميهم وأدافع عنهم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم ، إذ جحدوا نعمة الله عليهم ، واعتبرونى عضواً مريضاً فى جسمهم ، فبترونى منهم ، ولفظونى لفظ النواة ، وأنكرونى إنكاراً شديداً ، بعد أن بعثت بسيفى وجودهم ، وجعلت لهم مالا ممدوداً ، وسلطاناً مشهوراً ، محتملا فى سبيل ذلك كل نائبة ، معرضاً نفسى لأخطر تهلكة ، والحمد لله الذى أراحنى منهم ، وأنزلهم عن كاهلى بطردهم إياى ، فلا تطمع بعد ذلك فى أن أرجع إليهم .

وعاد قرواش إلى بنى عبس وقص عليهم ما سمع ، فزادت حيرتهم ، وزاغت أبصارهم ، ونظر بعضهم إلى بعض يتلمسون مخرجاً ، فقال الربيع : لم يبق إلا أن يذهب جمعنا إلى عنترة ، ونرتمى على أقدامه ، نادمين مستصرخين .

فقال قيس : كلنا يعلم غيرته على النساء ، فلنختر جماعة من البنات الأبكار ، والنساء الحرائر ، ثم نبعثهن إليه باكيات حاسرات مستنجدات ، فإذا ذهبن إليه على هذه الحال فإنه لا يردهن خائبات .

فقال الربيع : ولتكن جماعة النساء من بنتى وزوجى ونساء إخوتى وأكابر العرب فذلك أنفع وأنجع .
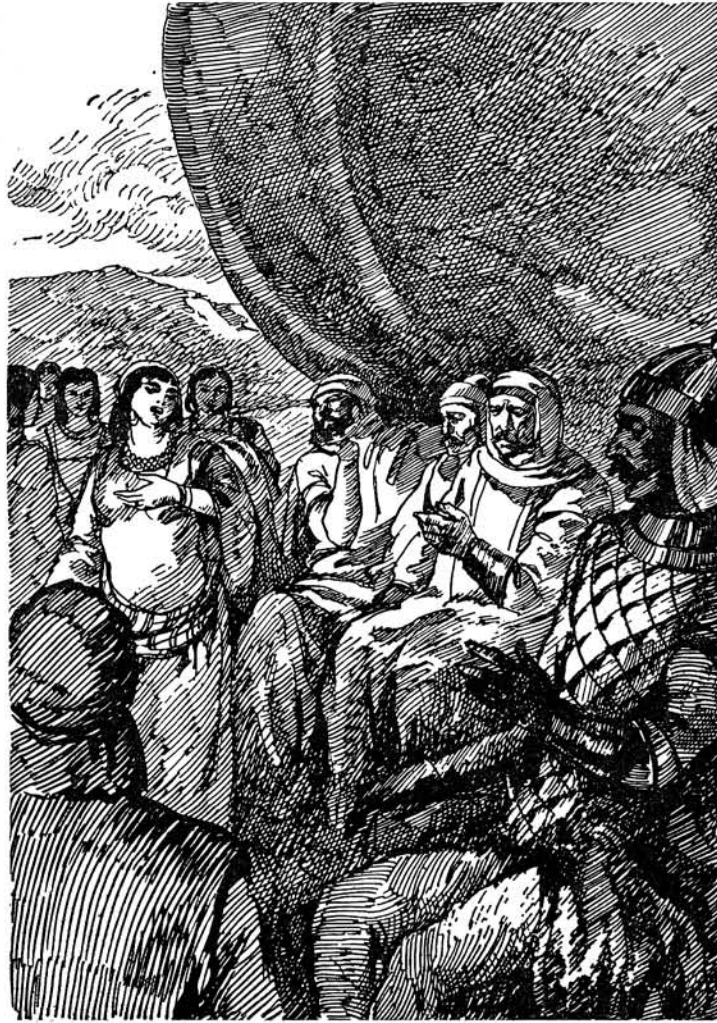
نساء عبس يستنجدن بعنترة

وجمعوا ثمانين امرأة ، وانطلقت بهن الخيل إلى عنترة ، فدخلن عليه فى مجلسه الذى كان مؤلفاً من صحبه ، وهناك نفذن الوصية ، فحسرن الرءوس ، وملأن الدنيا بكاء وصياحاً ، وقلن فى استغاثة حارة مؤثرة : نحن أهلك وأقرباؤك ، ومن لحمك ودمك ، وليس لنا فى دفع السوء عنا غيرك ! ! فلا تؤاخذنا بما فعل السفهاء من قومنا ، وقد ندموا على فعلتهم الشنعاء ، وثابوا إلى رشدهم ، واعترفوا بفضلك وسيادتك عليهم ، وارحم من بقى فى حينا من يتيم ويتيمة ، وامنحنا فضلك القديم ، وصونك العميم ، وتقدمت الجمانة بنت قيس فارتمت بين يديه قائلة : ارحم بكاءنا ، ولا تغفل مودتنا ، فقد بكت لبكائنا أعين الغرباء .

فكان لما رأى وما سمع أثره القوى فى عواطفه ، وإثارة أريحتيه ، وتأثر عروة وعامر بن الطفيل بما تأثر به عنترة ، فأمر أخاه شيبوبا أن يحضر جواده ، وينادى فى فرسانه أن يتأهبوا للخروج معه ، إلى هؤلاء الذين اعتدوا على بنى عبس ونسائهم أشنع عدوان وأبشعه ، وأشار عنترة على عامر بن الطفيل أن يستأذن غشم بن مالك والأحوص بن جعفر فى أمر رحيله معه لقتال دريد بن الصمة ، مخافة أن يكون خروجه يغضبهم ويجعله محل عتبهم ولومهم ، فأبى عليه ذلك قائلا : لن أشاور أحداً ، فأنت عندى أعز من أى إنسان ، ولو أن أحداً من بنى عامر ناصبك العداء لوضعت حسامى فى صدره . فقابل عنترة قوله هذا بعظيم الشكر

وجميل الثناء ، ثم جدوا فى المسير حتى كانوا على مقربة من جذع الطواف ، فنزلوا للراحة ليلتهم ، ولما أوشك الليل أن ينقضى استأنفوا مسيرهم حتى كانوا قبيل الصبح عند بنى عبس ، فهالهم أن رأوا ثلاثمائة خشبة منصوبة على الروابى والتلال ، وتحت كل خشبة فارس أسير من بنى عبس وزياد ، وعمارة وإخوته منهم ، وفرسان من بنى جشم الذين وكل إليهم أمر حراستهم من حولهم ينتظرون أمر دريد بقتلهم . فلما وصل عنترة أمر صحبه أن يشغلوا سيوفهم بقتل الأنفس ، غير عابئين بأسر أحد ، حتى ينفسوا تلك الكربة عن بنى عبس المحصورين ، وأسراهم المقيدين ، ويرغموا الأعداء على الانفضاض من حول الديار إلى أماكن سحيقة فى القفار ، وحينئذ يكون له فى قتالهم تدبير جديد . فلما رأى دريد وقومه عنترة ومن معه ، فزع لقيط بن زرارة إلى دريد قائلا : ذلك ما كنت أحذرك منه ، فقد حضر لمعونة بنى عبس عنترة وعامر بن الطفيل وفرسانهما ، وقد كنت ألح عليك فى إنجاز القتال والقضاء عليهم ، قبل أن يأتيهم هذا المدد الذى ترى ، ولكنك أطلت الأجل بالمبارزة .

فقال دريد : هب عنترة وجنوده حضروا ومثلهم معهم ، إن حضورهم هذا لا يضيرنى فى شىء ، وسترى ما أفعله بهم ، وبنى عامر من بعدهم .